السفينة الغامضة



- ١ -

قبل قرن من الزمان أو يزيد بدأت تفاصيل هذه الحكاية الغريبة. وربما لم يبقَ على قيد الحياة واحدٌ ممن شهد أحداثها أو سمع بها من أفواه إولئك البحارة الذين صنعوها ونسجوا خيوطها في عرض البحر، حتى صارت مغامرة غريبة كأنها من صنع الخيال.

كان ذلك على وجه التحديد في شتاء عام ١٨٧٢، والبحر في مثل هذا الفصل في الجهة المقابلة للسواحل الأسبانية، يبدو رمادياً، داكناً، لا أثر للجمال فيه. في هذا الوقت تنسحب السفن الشراعية الصغيرة وقوارب النزهة لتقبع في الخلجان الضيقة والموانئ الهادئة البعيدة عن الامواج بانتظار الربيع والصيف.

وتبقى السفن التجارية الكبيرة وسفن الصيد غير مكترثة بشحوب البحر والضباب وتلاطم الأمواج فكأنها تؤدي وظيفة أزلية كُلّفت بها، فتزخر الموانئ الكبيرة بهذه السفن وتنشط حركة العمال ونقل البضائع من الرصيف الى السفن وبالعكس .

في هذا الجو المتميز بالحركة والنشاط غادرت السفينة الاسبانية «دي جراسيا» الميناء متجهة الى أعماق المحيط الأطلسي وعلى ظهرها عدد من البحارة لا يزيد على الثلاثين ، وفي رأس قبطانها «مورهوز» خطط كبيرة واحلام لا حدود لها، فقد غادر نفس الميناء قبل ثمانية أشهر في رحلة طويلة لصيد الحيتان، أعدّ لها اعداداً كبيراً وأختار بنفسه عدداً من البحارة الشجعان. لكن الحظ لم يحالفه في تلك الرحلة وكادت تكون نهاية له ولسفينته لولا أن تدخّل القدر في اللحظة الأخيرة وبعث لهم من يساعدهم في تخطّي ذلك المأزق الكبير. فقد اختلف بحارته فيما بينهم ولم يستطع بقوته وحزمه أن يعيد الهدوء والانسجام فيما بينهم فراح البعض يخطط للايقاع بالبعض الأخر حتى وصل الخلاف الى

حد محاولة إحراق السفينة، وحينها قطع الرحلة وعاد من دون أن يكسب شيئاً يُذكر ، بل لم يستطع وقتها أن يسدد ديون الرحلة إلا بعد أشهر، حيث ساعده أصدقاؤه من أصحاب السفن.

وظلّ في الأيام التالية لهذه الرحلة يهيئ نفسه من جديد فأصلح ماعطب من سفينته ، ولمّ شمل بحارته فاستغنى عن المشاكسين منهم واختار آخرين لا يقلّون كفاءة ومقدرة عنهم، وها هو الآن يغادر الميناء وفي رأسه أحلام كبيرة في مطاردة الحيتان والعودة بربح وفير يستطيع بواسطته أن يفي ديونه ويدخر ما يزيد منه لرحلاته القادمة .

نظر القبطان مورهوز الى البحر وهو على سطح سفينته فألفاه صديقاً حميماً على عكس ما يبدو عليه من جبرت وطغيان، والبحار الأصيل هو الذي يرى في البحر الهيبةَ والرحمة والجمال حتى لو كان صاخباً، جباراً، تتكسر على أمواجه اكبر السفن وينهار في دواره أشجع الرجال، فهو هكذا منذ أن تعرف عليه

قبل ثلاثين عاماً حين كان فتىً يافعاً يعمل على ظهر زوارق الصيد الصغيرة قرب السواحل والخلجان يساعدهم في نشر الشباك وفي نقل السمك من الزوارق الى السوق. ومن ذلك الوقت لم يغيّر رأيه فيه، فهو يعشقه ويثق به حق وهو يبتلع السفن الكبيرة ويضرب زوارق الصيادين فيحيلها الى هشيم، غير مكترث بالصيادين البائسين وهم يصارعون أمواجه العاتية في نزال رهيب لا تكافؤ فيه.

سرح القبطان «مورهوز» في أحلامه حتى غاب الميناء عن عينيه ولم يعد يرى غير المياه الزرقاء الداكنة وغير النوارس التي تطير مع صفحة الماء ثم ترتفع قليلاً حين يفاجئها الزبد المتناثر بفعل الأمواج.

في تلك اللحظة فقط عاد الى نفسه، وحين ألقى نظرة خاطفة على السفينة ألفى كل واحدٍ منشغلاً في عمله بجد ونشاط، فالرحلة في اولها والبحارة ـ عادةً ـ في الايام الأولى يكونون نشطين، مـ حين، لم يتسرب اليهم الضجر بعد ولم يغمرهم الملل

بفعل منظر البحر الذي لا يتغير ... إمتداد المياه الزرقاء والزبد وصخب الأمواج ورائحة خشب السفينة العطن. كل ذلك يفرض على القبطان أن يكون مرناً وحكيماً في سلوكه معهم فالبحار في البحر مثل الضواري في البرية لا تنفع معها سياسة التدجين أبداً، فهو في الميناء شئ وفي عرض البحر شئ آخر مختلف تماماً. والقبطان «مورهوز» شأنه شأن كل قبطان خَبر البحر وخبر التوغل فيه في رحلات طويلة قاسية يعرف ذلك جيداً، ولهذا تراه يقضي معهم كل وقته يستمع الى نكاتهم البذيئة ويأكل معهم ويسهر أحياناً سهراتٍ صاخبة لم تخلُ من مشاكسات ومخاصمات غالباً ما تنتهي بجروح ورضوض بسيطة.

● ● ● ●

مضى يوم ويومان وثلاثة والسفينة تشق طريقها دون توقف والبحر كما يعرفونه ما إن يهدأ قليلاً حتى يعود فيزأر ثانية، ولكنهم اعتادوه واعتادوا حالته تلك، حتى السفينة «دي

جراسيا» كأنها تعرف شيئا من أسرار البحر وتقلباته فهي تندفع مسرعة حين يهدأ وتبطئ قليلاً وتسير بحذر وخوف حين يثور ويطغى .

وفي نهاية اليوم الثالث كانوا قد وصلوا الى المكان الذي يقصدون وبدأوا بانتظار الصيد .

كل سفينة لها حدودها ومياهها الأقليمية الخاصة بها فالبحر شاسع ، مترامي الأطراف ويستطيع أي صياد أن يبتعد بسفينته الى حيث يتربع على عرش بقعة من المياه تزيد حدودها على حدود دولة صغيرة على اليابسة ، ويستطيع أيضاً أن يفرض سلطته عليها حتى الأعماق، فلا أحد يمنعه ولا أحد يصدّه هناك .

وهكذا فعل «مورهوز»، فقد قطع في الأيام الثلاثة الطريق الى «دولته» هذه وترك سفينته تمرح وحيدة في عرض المحيط بانتظار خروج الحيتان كي تطاردها وتدخل معها في صراع دامٍ مرير لا يتدخل فيه طرف ثالث .

نام القبطان مورهوز ونام بحارته تلك الليلة وهم يحلمون

بمهرجانات الصيد هذه ، فليس هناك عند الصياد منظر أجمل من رؤية عدد من الحيتان من بعيد ، وليس هناك منظر كمنظر إستسلام الحوت بعد مطاردة قاسية تتخللها طعنات بالرماح واصطباغ المياه الصافية بالدماء .

بذلك المنظر ينتهي عادة مهرجان الصيد ، بعده يتم رفع الحوت الى سطح السفينة حيث تعمل فيه السكاكين الحادة الطويلة تقطيعاً وتهشيماً .

●●●●

استيقظ البحارة على صباح رائق ، فالبحر كان هادئاً ودوداً والشمس ترسل أشعتها من بعيد عبر سماء صافية زرقاء فتلتمع صفحة الماء كأنها أرض من البلوّر . في مثل هذا الطقس يحلو للبحارة أن يخرجوا من أقبيتهم ويشهدوا هذا الجمال الأخاذ .. إنها الساعة التي تسبق العمل، بعدها يمضي كل واحد الى مكانه وينهمك في عمله ، وراح كل واحدٍ منهم يطلق نظراته بعيداً في

البحر عله يكون أول من يشاهد الحوت . حتى القبطان «مورهوز» كان قد ترك المنظار جانباً وراح يتأمل البحر بعينين طافحتين بالسعادة والزهو فقد خُيلَ له هو الآخر أن بأمكانه أن يرى الحوت حتى لو كان على بعد عشرات الأميال دون حاجة الى منظار، فالسماء صافية والشمس قد طردت كل أثر للضباب في ذلك الصباح .

ولكن الأحلام لا تتحقق دائماً ، والصورة التي رسمها البحارة في مخيلتهم وانتظرها القبطان «مورهوز» بفارغ الصبر سرعان ما اختفت وحلت محلها صورة اخرى ، فقد ظهرت من بعيد سفينة كبيرة في المكان الذي كان يتوقع الجميع أن تظهر فيه الحيتان ، ومن النظرة الأولى عرف القبطان «مورهوز» أن السفينة التي ظهرت في الأفق ليست سفينة بضائع إنما هي سفينة صيد كسفينتهم ولابد انها رابطت في مكانها منذ أيام فقد لاحظ أنها ثابتة لا تتحرك ولهذا فأن حظهم في الصيد قد اختفى أو كاد، لابد لهم من تغيير إتجاه السفينة والابحار إلى

مكان آخر بعيد عن هذا المكان .

وحين وضع القبطان منظاره قرب عينيه أصيب بالدهشة ، فثمة شئ إستوقفه وتركه فاغر الفم . لم يكن القبطان مورهوز من الرجال الذين يدهشون لأبسط الأشياء ولا من اولئك الذين تثيرهم الأمور الغريبة والحالات الشاذة ، ولكنه في هذه الحالة كان مستغرباً متعجباً ، أو هكذا بدا لمساعديه وبعض البحارة من الذين كانوا الى جواره ، حتى انهم انتظروا بفارغ الصبر أن يرفع المنظار ويقول شيئاً، فأن منظره ليثير الاستغراب ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك حدثاً مفزعاً يقع في أقاصي البحر .

وأخيراً رفع المنظار عن عينيه وقال بنبرة واثقة شديدة:

ـ إنهم بحاجة ماسّة الى مساعدة .

ـ ماذا تعني يا سيدي ؟

أجابه مساعده «بيدرو» وهو ينتظر مزيداً من التفصيل.

ـ إنهم في مأزق ، خذ وانظر .....

وراح المساعد «بيدرو» يلقي نظرة متفحصة على السفينة المجهولة التي ظهرت فجأة في عرض البحر ، فيما ظل البحارة الآخرون ينتظرون تفسيراً لما قاله القبطان . لقد شاهد المساعد «بيدرو» كما شاهد القبطان قبله بقليل سفينة تضطرب في الافق وتسير سيراً مرتبكاً، أحس القبطان عندها أن هناك ما يمنع قيادتها قيادة سليمة في وسط البحر .

ولكن ماذا جرى لهذه السفينة لتضطرب هكذا ؟ هل أصيب بحارتها بمرض خطير منعهم عن العمل والتحكم في قيادتها ؟ أم ناموا في عنابرهم وتركوها تتأرجح وسط البحر بلا مبالاة ؟ وفجأة قطع القبطان «مورهوز» حبل الصمت وصاح يخاطب أحد البحارة :

- أرسل إليهم إشارة التحية ، لنعرف بالضبط أية غفوة سوداء تكتنفهم في مثل هذا الوقت ؟

- حالاً سيدي القبطان .

أجاب البحار الصغير نداء قائده وانطلق الى حيث يوجد عدد

من المدافع على سطح السفينة خصص بعضها للدفاع ضد هجمات مباغتة يشنّها القراصنة في عرض البحر وبعضها الآخر ليكون لغةً للتفاهم ، ترسلها السفن إشارات لا يفهمها غير البحارة أنفسهم .

وانطلقت اشارة التحية عالية ، مدوية تشق سكون البحر أرسلتها «دي جراسيا» الى السفينة المجهولة ، وصمت القبطان ومن معه بانتظار الجواب .

- غريب ليس هناك أي رد .

قال القبطان عبارته هذه وقد تهيأ لمغادرة المكان متجهاً الى سطح السفينة حيث مكان المدفع الذي أطلق إشارة التحية .

- أرسل الأشارة نفسها ثانية .

صرخ القبطان موجهاً كلامه الى البحار الصغير المكلف بالاطلاق وقد بدا غاضباً مكفهر الوجه ، فقد ساءه أن يُعامل هكذا أمام بحارته من قبطان السفينة الغريبة التي تسير سيراً مضطرباً في عرض البحر ، ناسياً أنها ربما لا تستطيع الرد ، وربما هي

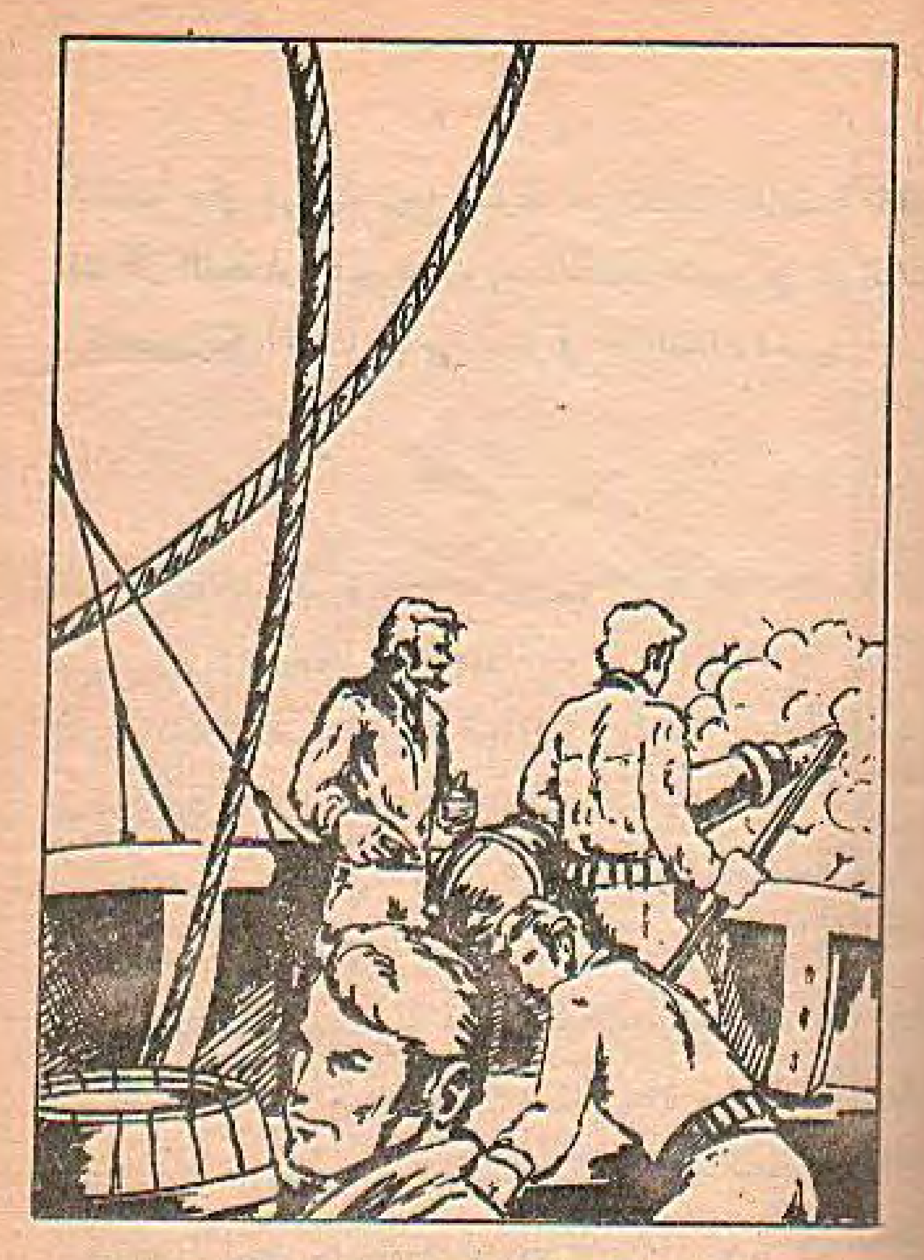
وبحارتها «بحاجة ماسة الى مساعدة» كما قال هو نفسه حين شاهدها قبل قليل في المنظار ٠

وانطلقت اشارات التحية ثانيةً ، وثانيةً لم ترد السفينة الغريبة على التحية ٠ وقتها تملّك القبطان «مورهوز» غضبٌ شديد ولم يعد يحتمل ، فمدّ يده بعنف الى حزامه حيث وضع غليونه وكيس التبغ، وراح يتمتم مع نفسه بصوت مسموع :

ـ حسناً ٠٠ سأعلّمهم كيف يتعاملون مع القبطان «مورهوز» ؟

ويبدو أن القبطان في تلك اللحظة قد قررّ شيئاً ما، فقد أشعل غليونه بهدوء وصعد الى قمرته ٠ وبعد دقائق أصدر أوامره بصوت قوي ، حاد، ولكن لا أثر للغضب والانفعال فيه :

ـ إنشروا الأشرعة بسرعة واتجهوا نحوها ٠ سادت السفينة للحظات حالة من الهياج ، فقد عرف البحارة من نبرة صوت قبطانهم أنه يكتم غضباً شديداً في أعماقه وأن أيّ فتور أو تهاون في تنفيذ أوامره قد تكون عاقبته وخيمة عليهم ٠ ولهذا راح الجميع يعملون بنشاط وهّمة ، وما هي إلاّ دقائق حتى كانت



« وانطلقت اشارات التحية ثانية »

السفينة «دي جراسيا» تتجه مسرعة نحو السفينة الغامضة تلك، فيما كان القبطان «مورهوز» ومساعدوه يقفون في المقدمة متأهبين لكل حدث مفاجئ يبرز في هذا الموقف الجديد .

- ٢ -

مضى على هذه الحالة اكثر من ساعة ، والسفينة «دي جراسيا» تشق طريقها باتجاه السفينة المجهولة حتى صارت ترى بوضوح ، وراح البحارة يحدقون بدهشة الى سفينة خالية من أي أثر للحياة ، فها هو سطحها ودفتها وقمرتها ذات الشبابيك الزجاجية خالية من البحارة ، وها هي تطفو على وجه الماء تتقاذفها الأمواج من كل جانب من دون أن يكون هناك من يقف خلف دفتها ويوجهها الوجهة التي ينبغي أن تتوجه إليها. في تلك اللحظة أحسّ القبطان «مورهوز» أنه كان مبالغاً في غضبه وانفعاله ، وأن السفينة التي لم ترد على تحيته لم تكن تقصد إهانته والأستخفاف به، إنما هناك أمر محيّر أشبه باللغز

يكتنف حالة السفينة تلك. وهو الآن أمام إمتحان كبير يتوجب عليه حل اللغز أولاً ومعرفة سرّ هذا الصمت الغريب الذي ينشر أجنحته فوق ظهر السفينة المجهولة .

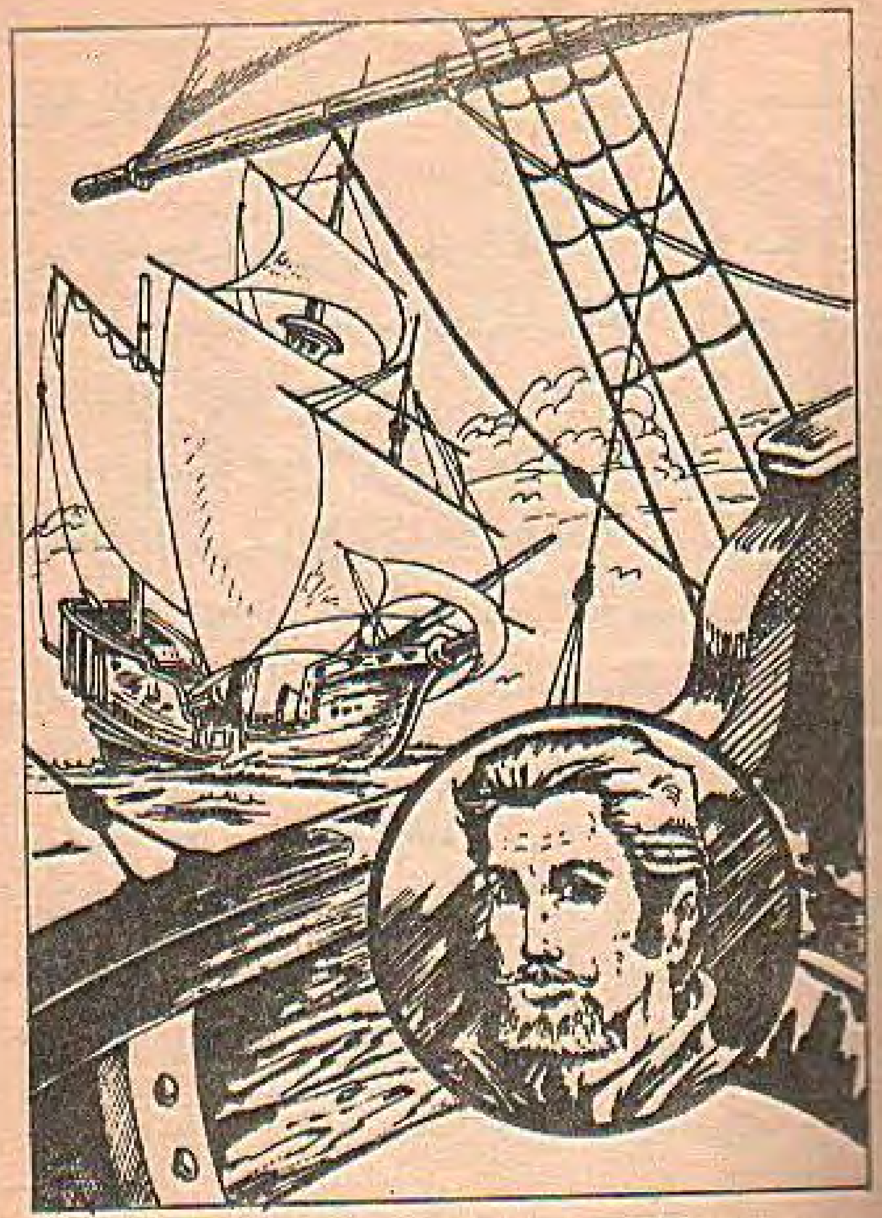
وأحسّ مساعدوه بتغير حالته بعد أن اقتربوا من السفينة وتأكدوا من ذلك حين قال بصوت وادع خفيض :

- حكاية هذه السفينة غريبة !! لابد أن هناك سراً. وكان هناك سر كبير بالفعل ، فماذا يعني وجود سفينة كبيرة في عرض البحر بلا بحارة ؟

هل ضجروا من الحياة فأقدموا على الانتحار الجماعي دفعة واحدة ؟ أم نشبت بينهم معركة حامية أودت بحياتهم جميعاً ، وما زالوا في عنابرهم وممراتهم صرعى ينتظرون من يُلقي بجثثهم في البحر ؟

هل فاجأهم مرض فتاك فانقضّ عليهم واحداً واحداً حتى أخمد أنفاسهم جميعاً ؟

لابد أن واحداً من هذه الاحتمالات هو الذي وقع لهم في



« في تلك اللحظة احس القبطان « مورهوز » بان هناك امرا محيرا يكتنف حالة السفينة تلك » .

الحقيقـــة، وإلاّ فليس أمـــامنـــا غير أن نـؤمن بقصص الجن والأشباح.

هكذا كانت الأفكار والتخيلات تطرق رأس القبطـان «مورهوز» ورؤوس بحارتـه ، فكل منهم قضى سنواتٍ عديدة في البحر ، رأوا من الغرائب والعجائب ما لم يصدقه العقل. مرةً راحوا يطاردون حوتاً أزرق خمسة أيام بلياليها، وكلما نجا منهم وهرب بعيداً عاد اليهم ضارباً سفينتهم بزعانفه القوية من تحت فكأنه يمازحهم ويلهو معهم في لعبة طريفة للتسلية ، وما أن يوشكوا على إصابته حتى يكون قد ذهب بعيداً ، ولكنه سرعان ما يعود الى لعبته من جديد ، حتى فقدوا أعصابهم. وحين أحسّ بأنهم بدأوا فعلاً يضجرون مضى في اعماق المحيـط ولم يعـد . ومرةً وجدوا صندوقاً خشبياً طافياً على وجه الماء وحين رفعوه الى ظهر السفينة وفتحوه وجدوا فيه فاكهة من النوع الذي لا يزرع إلاّ في المناطق الأستوائية حيث تبعد أشجارها أكثر من عشرة آلاف ميل عن مكانها في البحر ، ولولا انهم بعيدون عن

طرق السفن التجارية لاعتقدوا انه سقط من احدى السفن.
وقد إمتنع اكثر البحارة من أكل هذه الفاكهة لاعتقادهم أن الشياطين هي التي أرسلتها للايقاع بهم. أشياء غريبة وعجيبة رأوها في عرض البحر في رحلاتهم الكثيرة تلك وأبسطها وجود بقعة من الماء الساخن وسط البحر ، فقد شاهدوا مرةً بالمصادفة تغيّر لون الماء وحينما سحبوا منه شيئاً هالهم أن عرفوا انه ساخن لدرجة لا تستطيع بها أن تضعه على يدك أو على رجلك دون ان تصطلي بحرارته .

ولكن أغرب الحكايات جميعاً هو ان تجد سفينة كبيرة تتهادى في عرض البحر بلا ركاب ولا بحارة .

صمت القبطان «مورهوز» وراح يحاور نفسه بهدوء :

ـ ماذا سنصنع لو كان هناك فخ منصوب للايقاع بنا ؟ قال ذلك في نفسه وأضاف «ربما .. فالبحر يحوي من الغرائب والعجائب ومن الخيرات والشرور أعداداً لا تحصى ولا تعد . وقد نقترب منهم الآن فنفاجأ بهجوم كاسح لا نستطيع له دفعاً

وحين وصل القبطان «مورهوز» في حواره مع نفسه الى هذا التصور أمر بايقاف السفينة وطلب من مساعديه إرسال زورق صغير مع ثلاثة من البحارة الشجعان الى السفينة المجهولة لأكتشاف السر .

وهكذا إنشغل عدد من البحارة بفك حبال الزورق الصغير وإنزاله الى البحر ، ثم هبط اليه على سلّم من الحبال ثلاثة من البحارة الذين يُعتمد عليهم في مثل هذه الأمور ، فيما ظلّ القبطان «مورهوز» ومساعدوه يتابعون عملية فك الحبال وإنزال الزورق ثم هبوط الرجال الثلاثة اليه وتحركه صوب السفينة المجهولة .

مضى ما يقارب ربع الساعة قبل أن يصل الزورق الصغير الى السفينة ، وحين رفع أحد البحارة الثلاثة يده وأمسك بهيكل السفينة عرف القبطان أنهم يتهيأون لاختيار مكان الصعود، في تلك اللحظة فقط أخذ منظاره وراح يتابع عملية صعودهم الى سطح السفينة من خلاله .

كان قلق القبطان «مورهوز» واضطرابه واضحاً ، فقد كان يأخذ نفساً عميقاً بين فترةٍ واخرى وهو صامت لا يتحدث بكلمة واحدة مع مساعديه ولا يجرؤ أحد منهم على سؤاله. والتحدث إليه ، ولم يترك المنظار إلاّ بعد ان صعد الثلاثة جميعهم وغابوا عن عينيه داخل السفينة المجهولة ·

- ٣ -

حين اقترب البحارة الثلاثة من السفينة وصاروا على بعد عشرين أو ثلاثين متراً إستطاعوا ان يشاهدوا اسمها مكتوباً على القمرة .. انها السفينة «ماري سليست» ·

ولكنهم لم يشاهدوها ولم يسمعوا بهذا الأسم من قبل. وماذا يعني ذلك ؟ فهناك آلاف السفن تتأهب في الموانئ وعشرات الآلاف تمخر في البحار للتجارة والصيد ونقل المسافرين · وإذا كان الأسم غريباً عن موانئنا فهذا أفضل ... ستصير لنا صيداً ثميناً دون أن نكون قد أستولينا عليها بالقوة كما يستولي القراصنة على سفن التجار في أقاصي البحار ·

في هذا الموضوع راح البحارة الثلاثة يتحاورون قبل أن يتسلقوا

الحبل إلى سطح السفينة ، لم يكن لديهم سوى مسدس واحد ومديتين طويلتين حادتين ، وكانوا يتمنون الا يضطروا لاستعمال سلاحهم هذا ، فاذا كان هناك فخ للايقاع بهم فهل باستطاعة مسدس واحد ومديتين أن تحسم معركة ؟ ولكنهم على اية حال لم يستطيعوا الذهاب الى هذه المهمة دون سلاح، على الأقل من باب الدفاع عن النفس إذا استوجب الأمر ذلك .

أول شيء فعله البحارة الثلاثة حين وجدوا أنفسهم على سطح السفينة الغريبة هو إلقاء نظرة فاحصة على السطح، ولما تأكدوا جيداً من خلوه من أي أثر لأنسان توجهوا الى السلّم للهبوط الى داخل السفينة، كان «جورج» أشدهم بأساً وحيوية وكان يتقدم رفيقيه ممسكاً بمسدسه كأنه يتوقع مفاجأة تباغته في كل لحظة ، وكان «باترك» «ودونالد» البحاران الآخران يسيران خلفه وعيونها متألقه بضوء هو مزيج من الخوف والتأهب لما قد يطرأ بشكل مفاجيء ، فقد أحسّ البحارة الثلاثة إحساساً خفياً بأن في الأمر ريبة ، وان هناك عيوناً ترصدهم وتراقبهم حتى

تأتي اللحظة التي سيقضون بها عليهم، ولهذا كانوا ثلاثتهم صامتين أول الأمر، ولما هبطوا السلّم وساروا في بعض ممرات السفينة حاول باترك أن يكسر هذا الطوق القاسي ، طوق الصمت، فقد كان الصمت اكثر مرارة من المفاجآت التي يتوقعون حدوثها، وكان ملغوماً بالخوف والرعب والقسوة ، حتى ان نقرة خفيفة على الخشب كافية بأن تجعلهم يقفزون الى السقف . فقال

- غريب ، تبدو كأنها مهجورة تماماً .

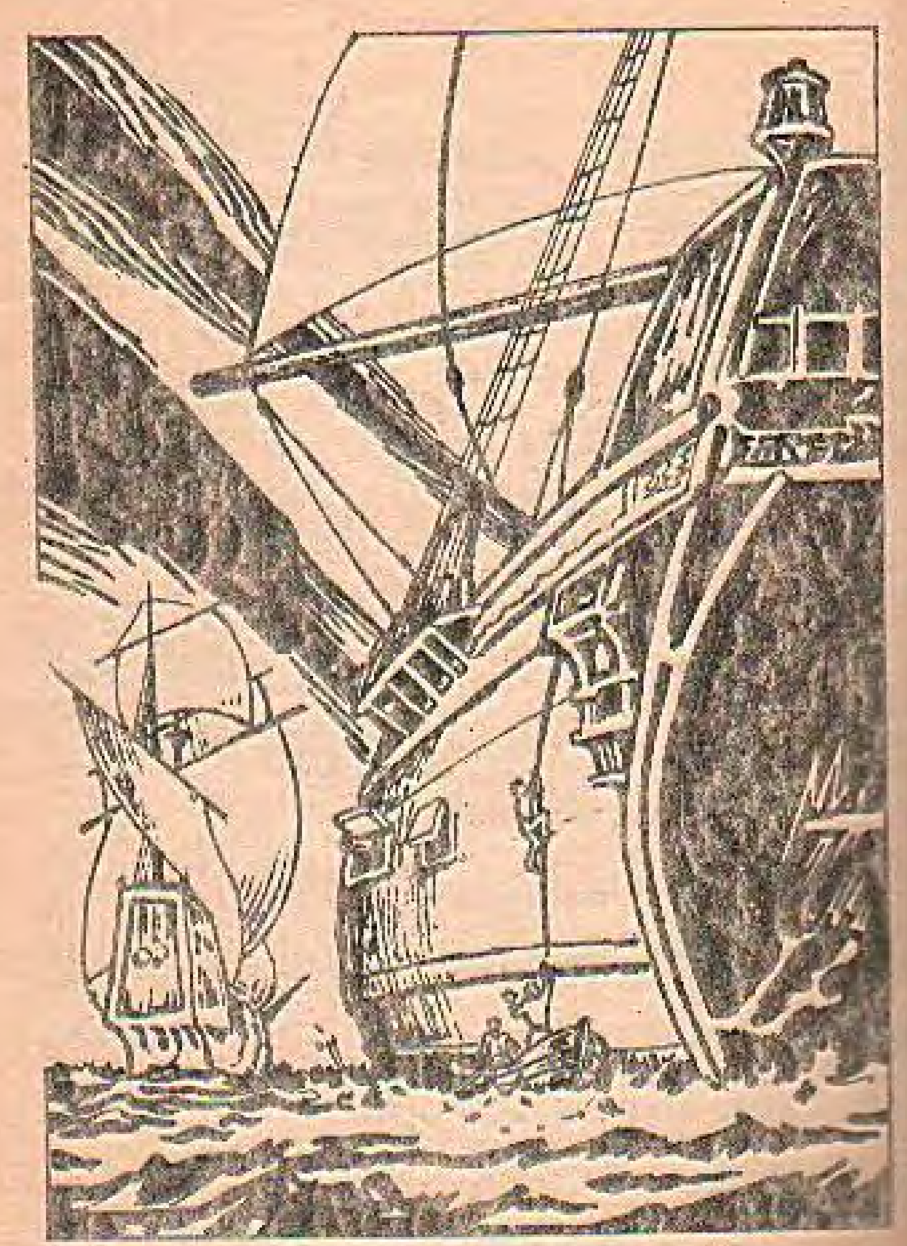
أجاب «دونالد» وكأنما أراد أن يزيح ثقلاً كبيراً فوق صدره بعد هذه الدقائق الطويلة من الصمت . - نعم ... ولهذا يجب أن نبقى معاً، فربما نصبوا لنا فخاً. في هذه الاثناء داروا في كل ممرات السفينة وعنابرها فلم يجدوا شيئاً ذا بال ، حتى خُيل لجورج أنهم ربما ماتوا فعلاً بوباء قاتل ، وراح يتصور كيف حلّ الطاعون بالسفينة وكيف ان بحارتها بدأوا يتناقصون واحداً بعد آخر ، فكلما مات أحدهم رموه في البحر حتى لم يبقَ سوى

بحار واحد جلس على حافة السفينة ، وحين أحس بدنو أجله
ألقى بنفسه هو الآخر في البحر .

وحين وصل «جورج» بتصوره الى هذا الحد لم يجد بُداً من أن
يقول :

ـ كونوا على حذر ، ربما السفينة موبوءة بالطاعون ، فلا تلمسوا
أي شئ .

كان باترك ودونالد خائفين أيضاً ولكنهما كانا يتوقعان شيئاً
آخر غير هذا ، وحين سمعا ما قاله «جورج» أخذا يسيران بحذر
كأنما سينتقل لهما هذا المرض المخيف من خشب السفينة ، وأبعدوا
أيديهما عن هيكلها بعد أن كانا يستندان اليه وهما يعبران من
عنبر الى آخر، لحظتها اقترح باترك أن يتركوا السفينة ويعودوا
الى سفينتهم بعد أن تفحصوها جيداً ، لكن جورج الذي وضع
نفسه موضع قائد المجموعة تذكر أنهم لم يذهبوا الى المطبخ ، فماذا
ترى سيقولون للقبطان «مورهوز» حين يسألهم عن ذلك ؟ لهذا
طلب منهم أن يذهبوا الى هناك فلم يجدا بُداً من أن يتبعاه وهو



« وراح البحارة الثلاثة يتسلقون الجبل بهدوء الى ظهر السفينة » .

يسير الى مؤخرة السفينة عَبْرَ أحد ممراتها الضيقة .

- لم أرَ في حياتي شيئاً مدهشاً كالـذي أراه على السفينـة «مـاري سليست» .

قال باترك ذلك كأنه يحدث جورج .

- ولا أنا ، إنها سفينة أشباح .

أجابه دونالد باقتضاب محاولاً أن يضفي على لهجته طـابع المزاح والسخرية .

في هذه اللحظة دفع جورج باباً خشبية فظهر له المطبخ واضحاً ، موائـد مصفوفة وعلب مـوزعـة على الرفـوف ولحوم مجففـة وأدوات أخرى منتشرة هنا وهناك .

فجأة وقف الجميع مذهولين أمام إحدى الموائد ، لم يستطع أحدهم أن يتحرك من مكانه أو يقول شيئاً ، وماذا يستطيع لحظتها أن يقول ؟ فلو انشق قـاع السفينـة ودخل عفريت من البحر لكان أهون عليهم مما شاهدوه في تلك اللحظة .

لقـد كان على احـدى الموائـد ثلاثـة أكـواب من الشـاي مـا زال

البخار يتصاعد منه .

ـ يا إلهي .. لابد أن أشخاصاً كانوا هنا قبل قليل ؟

قال جورج ذلك وهو يرتجف مذعوراً .

ـ ولكن كيف خرجوا وليس هناك سوى سلّم واحد ؟

أجابه باترك وقد تسمرت عيناه على الاكواب الثلاثة ، في هذه اللحظة كان دونالد ينظر الى ساقي جورج اللتين بدأتا تهتزان من الخوف ، فابتسم في أعماقه رغم شدة الخطر الذي يتهددهم ورغم اللغز المخيف الذي يقفون أمامه الآن ، ولكنه لم يستطع إلاّ أن يقول بشئ من المزاح المشوب بالخوف :

ـ نحن ثلاثة واكواب الشاي ثلاثة ، انها دعوة شاي يقيمها لنا أشباح السفينة .

لم يخفف دونالد بمزاحه شدة الذعر الذي أصاب رفيقيه ، خاصة جورج الذي كان يدعي باستمرار انه أحد الرجال المعدودين في البحار ، لقد كنت تجده حقاً في الملمات والشدائد ولكنها شدائد من نوع آخر فهو يتبرع باصلاح أي عطب في السفينة وتراه

يصعد ليشد الحبال فوق الصواري إذا ما تقطعت بفعل العواصف والرياح الشديدة ، ولكن جورج ـ كما أظن ـ لم يشهد مثل هذا الموقف من قبل ولهذا ترى ساقيه القويتين الشديدتي المراس ترتجفان ذعراً في مطبخ السفينة «ماري سليست» دون أن يكون هناك شئ غير ثلاثة أكواب شاي يتصاعد منها البخار الى فوق . وقبل أن يستعيدوا وعيهم كان دونالد قد تقدم الى قدر موضوع على خشبة عريضة في إحدى زوايا المطبخ ، وما إن رفع عنه الغطاء حتى تصاعد البخار عالياً فصاح بدهشة :

ـ انظروا انها دجاجة مسلوقة .

ـ هذه ليست مزحة .. دعونا نهرب بسرعة .

قال جورج ذلك وانطلق خارجاً من المطبخ يتبعه باترك ودونالد مسرعين .

- ٤ -

مضى وقت طويل على وجود البحارة الثلاثة في تلك السفينة المجهولة ، وما زال القبطان مورهوز وبحارته ينتظرون بفارغ الصبر عودة رفاقهم الثلاثة اليهم ومعهم أسرار تلك السفينة العائمة في عرض البحر · لكن الساعات تمضي دون أية بارقة من أمل ، وتحول القلق عليهم الى خوف رهيب على حياتهم ، فماذا ترى جرى لهم حين هبطوا داخل السفينة تلك ؟

هل صحّ ما تخيلّه القبطان من وجود فخ للأيقاع بهم ؟ أم انهم صرعوا أيضاً بذلك المرض الملعون ، الذي ربما تفشّى بين بحارتها فقضى عليهم جميعاً ؟

لم يترك القبطان «مورهوز» الأمور تسير ببطء دون أن يفعل

شيئاً ، ولما تأكد له أن الأمر أصبح لا يحتمل التأخير جمع البحارة على ظهر السفينة وخاطبهم قائلاً :

ـ مضى اكثر من ساعتين ولم يعودوا ، لابد أن حادثاً ما قد حدث لهم، وليس باستطاعتنا أن ننتظر ساعات أخر ، كونوا على أهبة الأستعداد فقد قررت أن تقتحم السفينة قبل ان ينجحوا باستدراجنا الى فخ لا نستطيع الأفلات منه» ·

حين انتهى القبطان «مورهوز» من كلامه ساد السكون والوجوم الجميع ، ثم ما لبثت الهمهمة أن ارتفعت قليلاً قليلاً بكلام غير واضح سرعان ما قطعه القبطان ثانيةً بقوله :

ـ ليذهب كل واحد الى مكانه وستصلكم التفصيلات حالاً· وراح البحارة يتمتمون بعبارات غير مفهومة وهم يعودون الى أماكنهم في السفينة ، في حين ظل القبطان مورهوز ومساعدوه يرسمون خطة الهجوم ، فيما ذهب المشرف على السلاح مع إثنين من البحارة الأقوياء لتوزيع البنادق والمراوات والمدى على رفاقهم حسب خبرتهم في نوع السلاح الذي يجيدون استعماله · ولما

إكتمل كل شئ كان قد مضى على وجود البحارة الثلاثة في السفينة الأخرى حوالي أربع ساعات ·

في تلك اللحظة تحركت السفينة «دي جراسيا» باتجاه السفينة المجهولة وقد إستعد بحارتها لخوض معركة فاصلة ، لارحمة فيها ، وقد تهيأوا أيضاً لكل الطوارئ والمفاجآت التي قد يباغتهم بها بحارة السفينة الأخرى حتى تلك التي لا تخطر على البال · فقد ـرغ مثلاً اثنان لملء كل الاوعية بالماء تحسباً للحريق ، فربما تسلل إثنان أو ثلاثة من تلك السفينة الى «دي جراسيا» وأشعلوا فيها النيران ·

وحين اقتربت السفينتان من بعضهما إمتدت بلمح البصر ألواح خشبية عريضة من السفينة «دي جراسيا» الى السفينة الاخرى وبنفس الوقت قفز القبطان «مورهوز» وعدد من بحارته المدججين بالسلاح الى سطح السفينة تلك عبر الألواح الخشبية الممتدة بينهما ·

كان الهجوم سريعاً ومباغتاً ، والاندفاع لا يترك لحظة للعدو

يستطيع فيها أن يستعيدوعيه للدفاع عن نفسه وصدّ هذه القوة المندفعة ، الضاربة ، ولو كان العدو موجوداً لحظتها في السفينة لاصيب بالانكسار والهزيمة بالتأكيد ، ولكن ـ للأسف ـ لم يكن هناك أي أثر للعدو ، فما إن صار البحارة المدججين بالسلاح على سطح السفينة وفي أنحائها الاخرى حتى أصيبوا بالخيبة ، فالبنادق مشرعة والهراوات والسكاكين الطويلة مرفوعة الى الأعلى ، ولكن ليس هناك من أحد في مواجهتهم· وبالتدريج كفّ البحارة عن الاندفاع وعن الصياح الوحشي الهستيري الذي يسبق المعارك عادةً ، وراحوا ينظرون الى بعض والى عنابر السفينة الخالية ، الصامتة مثل مقبرة كبيرة وهم مندهشون ، متعجبون ·

وكان القبطان «مورهوز» اكثرهم دهشةً وعجباً ، فاذا كانت السفينة خالية فأين ذهب بحارته الثلاثة يا ترى ؟ ولم يجد تفسيراً ولا حلاً يريح به عقله من هذا العناء سوى أن يطلب من البحارة تفتيش السفينة تفتيشاً دقيقاً· وهكذا حصل ··

ظل البحارة يجولون داخل عنابرها وممراتها ويرفعون برميلاً من هنا ولوحاً من هناك علهم يجدون شخصاً مختبئاً في مكان ما من السفينة ، ولكن عبثاً ، فكل عنابرها خالية ، وكل ممراتها ساكنة لا أثر للحياة فيها. وحين فتح أحدهم باب المطبخ ورأى أكواب الشاي الثلاثة والدجاجة المسلوقة في القدر هبّ مندفعاً ليخبر القبطان بذلك .

تقدم القبطان ومعه مساعدوه الى المطبخ وهناك وقف يفكر في الامر . وبعد تقليبه على كافة الوجوه توصل الى حقيقة الأمر ، ففي اعتقاده ان بحارته الثلاثة حين دخلوا السفينة ولم يجدوا فيها أحداً من البشر راحوا يفتشون عن الاشياء الثمينة من أموال وجواهر ، وقد انشغل أحدهم بصنع الشاي وتهيئة غداء جيد لهم. وفي هذه الأثناء ربما عثروا على بغيتهم فاتفقوا فيما بينهم على اقتسامها ، ولكن وجودنا نحن سيضيع عليهم الفرصة، فهل يخبئون الذهب في هذه السفينة أم يأخذونه معهم ؟ هل يعودون إلينا أم يظلون في السفينة ؟

على اية حال فهم ربما فكروا في الأمر من كل الوجوه ايضاً ولكن لم يجدوا بدأ من الهرب ، فأخذوا الذهب الذي وجدوه وهربوا بعكس الاتجاه بحيث لم نستطع أن نراهم وهم يهربون ، لأن هذه السفينة الكبيرة تقف حاجزاً بيننا وبينهم ، وبطبيعة الحال لم يكن لديهم الوقت الكافي لأكل الدجاجة أو لشرب الشاي .

ونظر مساعدو القبطان اليه وقد بدت على وجوههم علامات الدهشة ، فالامر أصبح واضحاً الآن والدلائل كلها تؤكده ولهذا فليس هناك وقت يمكن تضييعه. صعد الجميع الى سطح السفينة ووقف القبطان مورهوز يصدر التعليمات بصوت عالٍ :

- لن يذهبوا بعيداً ، أنزلوا الزوارق وابحثوا عنهم في كل الاتجاهات .

ثم أضاف هامساً :«سأعلم جورج كيف يكون نبيلاً ويحترم آداب البحار» .

إنشغل البحارة في السفينتين بانزال عدد من الزوارق الصغيرة

الى الماء، واستلموا آخر التعليمات حول البحث عن أصدقائهم الثلاثة الذين انفردوا بالذهب والمال وهربوا به . في هذه الأثناء إنطلق صوت قوي من أحد جوانب السفينة : «أوقفوا إنزال الزوارق ... أوقفوا إنزال الزوارق»

وطرق هذا الصوت أذني القبطان «مورهوز» كما طرق آذان البحارة جميعاً ، فالتفت الى الجهة التي إنبعث منها وقد تلبسه الغضب وارتسم على وجهه الاستياء:

ـ من هذا المجنون الذي يعطي الأوامر ؟

وقبل أن يتحول غضب القبطان «مورهوز» الى جنون ذهب أحد مساعديه مسرعاً ليستوضح جلية الأمر ، وليعرف بالضبط لماذا يطلق ذلك البحار أوامره وهو الذي لا يستطيع أن يأكل في الوقت الذي يريد. وحين وقف أمامه وما زال يصيح موجهاً كلامه الى جميع البحارة على سطح السفينة لم يستطع مساعد القبطان إلاّ أن يصرخ بوجهه قائلاً :

ـ ماذا جرى ؟ كيف تتجرأ على إصدار الأوامر ؟

أجاب البحار بهدوء وعلى شفتيه ابتسامة المنتصر :

ـ ولماذا ننزل الزوارق ؟ تعالَ انظر ....

وحين مدّ مساعد القبطان نصف جسمه لينظر من فوق السفينة فوجئ بقارب صغير مربوط أسفل السفينة ويكاد يختفي تحت هيكلها العالي .

أجاب البحار مساعد القبطان وهو ما زال على انحناءته تلك :

«هذا هو زورق رفاقنا الثلاثة»

فتمتم مساعد القبطان بصوت خافت يكاد يبين :

ـ عجيب .. إذاً فهم لم يسرقوا المال ويهربوا !!

ولما أخبر القبطان بذلك صمت طويلاً وبدت الدهشة على وجهه وقال بألم وحيرة :

«هذا لغز محير ... فهم ما زالوا في السفينة ولم يغادروها .

● ● ● ●

- ٥ -

إنقسم البحارة الى مجموعتين ، إحداهما ظلت في السفينة المجهولة كي تقودها كما أمر القبطان «مورهوز» الى الساحل والثانية عادت الى السفينة «دي جراسيا» بعد أن غادرها الجميع إثر هجومهم السريع على السفينة الغريبة تلك ۰ وكان لابد من قطع الرحلة والعودة الى الميناء ، إذ لا يمكنهم في هذه الحالة أن يستمروا في مهمتهم لصيد الحيتان وقد فقدوا ثلاثةً من رفاقهم بصورة غامضة ۰ وأضيفت الى مسؤوليتهم مسؤولية جديدة ، هي قيادة سفينة كبيرة خالية من الركاب وإيصالها الى الساحل ۰

كانت السفينتان تسيران ببطء باتجاه اليابسة ، وكل واحد من البحارة المنتشرين على سطحيها مشغول بالبحث عن تفسير

مناسب لهذه الالغاز، إلاّ ان اكثرهم حيرةً وذهولاً كان القبطان «مورهوز» نفسه ، ولهذا ظلّ في قمرته ينظر الى السفينة الغريبة وهي تبحر أمامه وكأنه ينظر الى أحد الأشباح المخيفة التي تزخر بها الحكايات القديمة والأساطير ، ها هي تسير أمامه الآن كأية سفينة أخرى ، إلا ان تصورّها وهي في عرض البحر دون ركاب هو الذي يثير في نفسه الخوف والحيرة ، ثم غياب بحارته الثلاثة الشجعان فجأة حالما استقروا داخلها تحول من شك الى رعب قاتل لم يجد له أيّ تفسير ، واللغز الثالث الذي جعل الأمر يفوق الخيال في غرابته هو وجود أكواب الشاي الثلاثة والدجاجة المسلوقة تواً ۰

أيستطيع الآن بعد كل ما حدث ان يعتبر ذلك مجرد حالة من الحالات التي تحصل عادةً في البحر ؟ ثم ماذا تراه سيقول حين يصل الى الساحل ؟ وبماذا سيخبر أهله وأصدقاءه وخفر السواحل هناك ؟ أيكفي سرد الحكاية من بدايتها لأقناعهم ؟ لا أظن ۰۰۰ لابدّ له من أن يجد الحل ، ولابد له في هذه المسافة

التي تفصله عن الساحل من حسم المعركة الدائرة رحاها الآن داخل رأسه وأعماقه. لهذا ظلّ في قمرته ولم يغادرها . ظلّ وحيداً مع نفسه بعد أن ترك مهمة القيادة الى أحد مساعديه يصدر الأوامر ويتفقد البحارة في السفينة دون أن يتدخل في شئ . وحين أحسّ مساعده بذلك تركه وحيداً ولم يقطع عليه وحدته وصمته .

••••

نعود الى السفينة المجهولة ... النهار يقترب من نهايته ، وكل شئ فيها كما تركه القبطان «مورهوز» ، فها هي تسير أمام السفينة «دي جراسيا» كما لو إن شيئاً لم يحدث قط إلاّ ان بحارتها الموزعين في مواقعهم ما زالوا متهيّبين ، خائفين ، ليس باستطاعتهم أن يألفوها كما ألفوا قبلها عشرات السفن التي عملوا عليها ، فثمة إحساس غريب بأنها تخفي في داخلها عدواناً غامضاً عليهم وإنها بأية لحظة ستفاجئهم وتقضي عليهم ، لهذا ظلوا

الساعات الأولى من قيادتها حذرين من كل شئ ، حتى من لمس الحبال والأشرعة والأدوات الاخرى التي لابد من العمل بها لتسيير السفينة .

وقد تطوّع بعضهم لتفتيش عنابرها وممراتها كل ساعة للتأكد من سلامتها وخلوّها من المخاطر ، حتى اطمأنوا قليلاً بعد مضي عدة ساعات على الأبحار ، وحين حاول بعضهم الهبوط للتفتيش صاح مساعد القبطان بهم منددا بهذا السلوك الذي ينمّ عن الخوف والجبن وقال لهم بصراحة : «هذا قلق لا معنى له ، فماذا تتصورون بداخلها ؟ لوكان هناك شيئ لاستطعنا العثور عليه ثم انهم ليسوا حبات قمح كي يختبئوا في شقوقها وقيعانها ، لو كانوا قد تحولوا الى جرذان لاستطعنا القبض عليهم أيضاً فها هي الجرذان تمرح في كل مكان، آصعدوا الى أماكنكم وكفوا عن هذا العبث الذي لا يجدي نفعاً»

بهذه الحدة والعصبية أنهى مساعد القبطان حديثه ومضى الى سطح السفينة . في تلك اللحظة كان البحارة قد انتهوا من

تفتيش أحد العنابر فرفعوا الأخشاب والحاجيات القديمة والصناديق وأكياس الفحم والملابس العتيقة عن المشاجب وعدداً من البراميل الفارغة ، وحين سمعوا تقريع مساعد القبطان وتنديده بهم لم يأبهوا لذلك بل على العكس شعروا أنه قد أزاح عن صدورهم الرعب والخوف الذي خيّم عليهم منذ اللحظات الأولى لدخولهم السفينة فانقلب ذلك الخوف الى مزاح وراحوا يتندرون ويضحكون وكأنهم لم يكونوا قبل قليل فريسةً لذعر مدمّر .

وحين رفع أحدهم برميلاً فارغاً الى فوق قال وهو يضحك :

ـ فارغ منذ مليون سنة على الاقل !!

فأجابه زميله بنفس الروح المرحة الساخرة :

ـ إذا دعني أتنفس قليلاً من الهواء المعتق .

وراح الجميع في غمرة الفرح يضحكون ويقهقهون وما لبثوا أن غادروا العنبر متوجهين الى أماكنهم، وما أن وصلوا منتصف السلّم المؤدي الى سطح السفينة حتى إنقطع ضحكهم فجأة . كان

ثمة واحد من البراميل الفارغة يتدحرج وسط العنبر.

ـ يتدحرج دون أن يمسّه أحد في هذا السكون ؟!

قال أحدهم وكأنه يحدّث نفسه .

ـ لابد أن يداً خفية دفعته !!

أجابه زميله وقد خيم الخوف ثانية عليهم .

ولكي لا ينزلوا الى العنبر ويفتشوا مرةً أخرى استمر زميلهم الثالث في صعوده وهو يقول :

ـ دعكما من هذا المراء .. لم يكن ثابتاً فتدحرج ، ثم اننا فتشناها جيداً ولم نعدها الى أماكنها كما يجب ، لقد أصبح كل شئ في نظركم مخيفاً .

صعد البحارة الى سطح السفينة ولم يعودوا يفكروا بحادثة البرميل المتدحرج ، وربما كانوا على حق بإهمالهم هذه الحادثة العابرة ، فما هو شأنها في تسلسل الأحداث الغريبة التي مرت بهم ؟ ثم انهم فتشوا اكثر تلك البراميل الفارغة الموزعة على العنابر ، ولم يكن وجودها في الأساس يثير الأستغراب ، فليس

في عرض البحر سفينة واحدة تخلو من هذه الأعداد الكبيرة من البراميل لحفظ الماء والزيت والنبيذ والأطعمة السائلة والمجففة وغير ذلك مما يحتاجه البحار في سفراته الشاقة ، الطويلة ·

وبعد العشاء انشغل اكثر البحارة بالأحاديث الجانبية وتشعبت أحاديثم في كل الأتجاهات وتطرقت الى اكثر الموضوعات حتى انتهوا الى أقرب المواضيع اليهم واكثرها التصاقاً بهم ، انه موضوع السفينة المجهولة التي يقودونها الآن الى الساحل ·

قال أحدهم : هل سنقتسم ثمنها بالتساوي حين تباع ؟

أجابه آخر بهدوء : نعم ولكنها لن تباع الآ بعد إجراءات طويلة ·

- ولماذا هذه الأجراءات اللعينة ؟

- لأنهم سيظنون أننا هاجمنا السفينة في عرض البحر وقتلنا بحارتها ·

حين سمع البحار الآخر الفقرة الأخيرة من عبارة صاحبة راح يمتم بوجوم :

- هذه مصيبة لم أفكر بها من قبل ·

●●●●

مضت السفينتان تشقان طريقهما عبر الامواج فيما خيمّ الظلام على كل شئ وبات لا يُسمع غير صفير الرياح في الأشرعة وارتطام الأمواج بهيكل السفينة · في مثل هذه الحالة وفي مثل هذا الوقت يشعر الجميع بالأمان ، وتسود النفوس حالة من الطمأنينة الكاملة فيلتفّ كل واحد بغطاء أو عباءة أو رداء قديم ، ويتكئ على جزء من السفينة وينام، حتى هؤلاء المكلفين بواجبات الحراسة والمراقبة أو سواها يظلّون يقاومون بشدّة اغراءات هذه الغفوة التي لا تقاوم ·

وبعد منتصف الليل بقليل كان أكثر البحارة نائمين ، وكان إثنان أو ثلاثة من المكلفين بالحراسة والمراقبة أقرب الى النوم منهم الى اليقظة ، ولكنهم بين فترة واخرى يفتحون عيونهم في عتمة البحر فلا يرون شيئاً غير شعلة ذابلة في قمرة السفينة ترسل نوراً شاحباً وسط عالم هائل من الظلام ، فترتد نظراتهم بسرعة وتعود عيونهم ثانية الى الانغلاق ·

في هذا الجو الساكن ، المظلم ، انطلقت فجأة صرخة مدوّية من سطح السفينة المجهولة تبعها سقوط جسد ثقيل وسط الماء ،

وبلحظة واحدة انتهى كل شئ ، وسرعان ما ايقظت البحارة الآخرين.ضراوة الصرخة وشدة تألم صاحبها فضوا مسرعين الى جهة الصوت وكل منهم يتحسس سلاحه خائفاً مذعوراً . كان كل شئ كما تركوه قبل ساعتين أو ثلاث ، هادئاً ، ساكناً ، كما لو انه يحاول أن يخفي جريمته الجديدة . قال المساعد موجهاً كلامه الى الجميع ، سائلاً عن البحار المكلّف بحراسة ذلك الجانب من السفينة مع انه يعرف بالضبط انه البحار جاكسون ، فقد قسّم هو نفسه مسوؤليات الحراسة والمراقبة بين البحارة ، وهو الذي وضع جاكسون في الجانب الأيمن من السفينة ومع ذلك طلب من بحار آخر أن ينادي بأعلى صوته على جاكسون .

وانطلق الصوت مختلطاً مع هدير الموج وصفير الرياح ... جاكسون جا.. ك.. سون.. جا.. ك.. سون.... . ولكن البحر لم يجب بغير ضربات الأمواج على هيكل السفينة وكأن الأمر كله لا يعنيه . وراح زملاء جاكسون يبحثون هنا وهناك ، وامتدت رقاب الجميع تحدق في صفحة الماء الداكنة المظلمة ، ولكن .. لا شئ على الاطلاق ، كأن البحر ابتلع البحار

فجاة انطلقت صرخة «مدوية» من سطح السفينة تبعها سقوط جسد ثقيل وسط الماء» .

جاكسون وأطبق عليه ·

في تلك اللحظة والبحارة جميعاً يقفون حول مساعد القبطان المكلف بقيادة السفينة المجهولة كان هناك لغز جديد أضيف الى قائمة الألغاز المحيرة التي رزئوا بها بعد اقترابهم من هذه السفينة الملعونة ، انه اختفاء جاكسون ·

●●●●

لم يبقَ من الليل إلا القليل، وفي مثل هذه الساعة ليس أمام مساعد القبطان سوى الانتظار الى الفجر ثم إخبار القبطان «مورهوز» في الامر ، فماذا ترى سيصنع في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل لو حاول إيقاظه الآن وإخباره ؟ ثم كيف ستقترب السفينة المجهولة من السفينة «دي جراسيا» من دون أن يحدث تصادم بينهما يؤدي الى غرقهما معاً ؟ كان الأفضل في رأيه أن يترك الأمر حتى الفجر فحادث مثل الذي وقع

لجاكسون يقع دائماً في البحار ، وقد يكون ما حصل سقوطاً طبيعياً سببه النعاس والأهمال .

ومع انهم لا يقللون من شأن الحادث المؤلم ولا من شدة وقعه إلاّ انهم كبحارة مارسوا مهنة البحر الشاقة ، المريرة ، ما عليهم إلاّ العودة الى اعمالهم وواجباتهم المكلفين بها وكأن كل شئ على حاله قبل سماع الصرخة المدوية واختفاء جاكسون من سطح السفينة واعتبار ذلك الحادث قضاءً وقدراً. وهكذا عاد كل واحد الى مكانه ثانية ، وكلف بحار آخر بالحراسة في الجانب الايمن من السفينة بدل البحار جاكسون ، وراح كل منهم يتدثر بغطائه كأنه يحاول إخفاء نفسه من أخطار محدقة به من كل جانب ، ومرّ وقت قصير ما زال الجميع فيه متيقظين ، حذرين ، لا يريدون أن يخطفهم النوم ثانيةً ، فما زالت صرخة رفيقهم «جاكسون» تضج في أسماعهم وتبعد عنهم شبح النوم ولكن في تلك اللحظة بالذات كان هناك من يترصدهم بدقة .. ينظر اليهم ويحسب عليهم انفاسهم واحداً واحداً . ولو كان مساعد القبطان يعرف بالضبط ما يدور في أحد عنابر السفينة ثم على

سطحها لُجنّ من هول ما يرى ، ولكن الأمور كانت تجري بهدوء عجيب وبسرية تامة حتى أن بحارة السفينة المجهولة ومساعد القبطان لم يشعروا بما يحدث وقتها في السفينة التي هم عليها .

- ٦ -

الساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل وكل شئ في السفينة المجهولة عاد كما كان ، فالبحارة راحوا يغطون في نوم ثقيل بفعل نسيم البحر البارد والتعب والأجهاد الذي هدهم طوال رحلتهم الشاقة الطويلة ، ولكن ثمة حركة مريبة لم يشعر بها أحد كانت تجري داخل أحد عنابر السفينة ، فهناك مخبأ سري يبدأ من بوابة صغيرة في المطبخ وينتهي الى قاع السفينة · ولو شاهد البحارة المكلفون بالحراسة ذلك الباب وهو يفتح ويخرج منه عدد من القراصنة بثيابهم الممزقة لأغمي عليهم من هول المنظر ·

لقد كان المخبأ كبيراً بعض الشئ، فقد خرج منه اكثر من عشرين

قرصاناً بوجوه قذرة ولحى طويلة وقد أمسك كل منهم بعصى غليظة أو مدية وعبروا أحد الممرات الى سطح السفينة واحداً واحداً ، وبحذر شديد كان كل شئ مهيئاً لبدء ساعة الصفر ، فما هي إلاّ لحظات حتى وجد البحارة أنفسهم مكمين ، موثقي الأيدي بالحبال ·

لقد زال الآن كل غموض ، وانكشف السرّ الذي بقي لغزاً لدى البحارة جميعاً ، إنها سفينة لصوص إذاً ، وإن ذلك الذي حدث ما هو إلاّ فخ نصب لهم وهاهم قد وقعوا فيه ·

ولكن كيف السبيل الى إخبار القبطان «مورهوز» وهو في السفينة الأخرى ؟ لم يبقَ واحد منهم كي يستطيع اخباره بقصة السفينة المجهولة وقراصنتها الذين اختبأوا طوال الوقت في أحد مخابئها السرية ، المظلمة ·

لقد جمعهم زعيم القراصنة على سطح السفينة وراح اتباعه يعدون لعمل آخر ، نقلوا عدداً من الألواح الخشبية العريضة وظلّ كل واحد منهم ممسكاً بعصا أو مدية وعادوا يتشاورون مع

الزعيم .

«يا لهم من رجال أشداء» قالها مساعد القبطان وكأنه يتحدث مع نفسه ، لقد وجدوا أنفسهم فجأة تحت رحمتهم ، كيف استطاعوا في هذا الظلام أن يخرجوا من مخابئهم ويشنوا هذا الهجوم الصامت الذي لم يشعر به حتى الحراس .

ظل مساعد القبطان يؤنب نفسه بصمت ، فقد تذكر تلك الساعة التي كان فيها بعض البحارة يفتشون عنابر السفينة ، لقد كان شديداً ، قاسياً معهم ، فلو تركهم وقتها لربما استطاعوا اكتشاف السر ، فلا بد ان بعضهم كان مختبئاً في عدد من البراميل ايضاً ، لابد ان التفتيش الدقيق والمستمر يؤدي الى نتيجة طيبة ، ولكن ماذا يعمل الآن بعد فوات الأوان ؟ ها هو مع بحارته موثقاً ، مقيداً ، وهناك القبطان مورهوز على بعد عشرات الامتار منهم ولكنه لا يستطيع نجدتهم ، فمن أين له أن يعرف ان بحارته الآن في السفينة الآخرى يعانون من الأسر ؟ وكيف يكتشف أن الخطر الآن يقترب منه ومن

السفينة «دي جراسيا» بالذات ؟ كان مساعد القبطان منشغلاً في تصوراته هذه حين رأى بعض القراصنة ينزلون عدداً من القوارب الصغيرة الى الماء ، ثم رأى السفينة وهي تغير إتجاهها قليلاً قليلاً . لقد عرف الآن مقصدهم جيداً ، انهم يريدون السفينة تلك ، وهي هدفهم الأول والأخير ، ولكن ماذا تراه يستطيع أن يعمل ؟ أيصرخ ؟ وماذا تجدي صرخة ضائعة في هذا الفضاء الواسع مع صخب البحر وصفير الرياح ؟

وحتى هذه الصرخة الضائعة ليس باستطاعته إطلاقها وهو مكمم الفم ، لا شئ أمامه الآن سوى الصمت والنظر الى ما سيجري أمام عينيه من أحداث ..

وهكذا كان ، فبعد أقل من ساعة كانت السفينة «دي جراسيا» تكاد تلتحم مع السفينة الغريبة دون أن يشعر بها أحد من الحراس .

••••

إنطلقت الزوارق الصغيرة وسط الظلام حتى اقتربت من هيكل السفينة «دي جراسيا» دون أن يشعر بها أحد ، وتسلق القراصنة بهدوء الى سطح السفينة ، وكانت لحظات صعبة وقاسية على البحارة المقيدين في السفينة المجهولة ، فحين رأوا القوارب وهي تنزل الى الماء عرفوا ما الذي قرر القراصنة أن يفعلوه. وكانوا يتمنون في أعماقهم أن يكتشف القبطان مورهوز وبحارته الخطة قبل أن ينتهوا الى النهاية نفسها على سطح السفينة . وراحت الدقائق تمرّ وهم ينتظرون أن تنطلق المدافع باتجاه الزوارق ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. في تلك الاثناء كان القراصنة قد أخذوا أماكنهم على سطح السفينة مختبئين خلف عدد من الحواجز ينتظرون إقتراب سفينتهم كي يبدأوا الهجوم ، وفي اللحظة التي امتدت فيها الألواح الخشبية بين السفينتين أحسّ القبطان «مورهوز» الذي كان متكئاً على كرسيه في قمرة القيادة برجة قوية في السفينة وحين فتح عينيه ونظر من القمرة وجد السفينتين ملتحمتين معاً فقفز من مكانه صارخاً بالحراس وبالبحار المكلف بالوقوف خلف الدفة .

لقد اعتقد القبطان مورهوز بأن هؤلاء قد غلبهم النوم فأهملوا المراقبة وها هما السفينتان تلتحمان معاً بقوة ، ولم يخطر بباله أبداً بأن القراصنة يسيطرون الآن سيطرة تامة على السفينتين وان بحارته جميعاً قد كمت أفواههم وأوثقوا بالحبال .

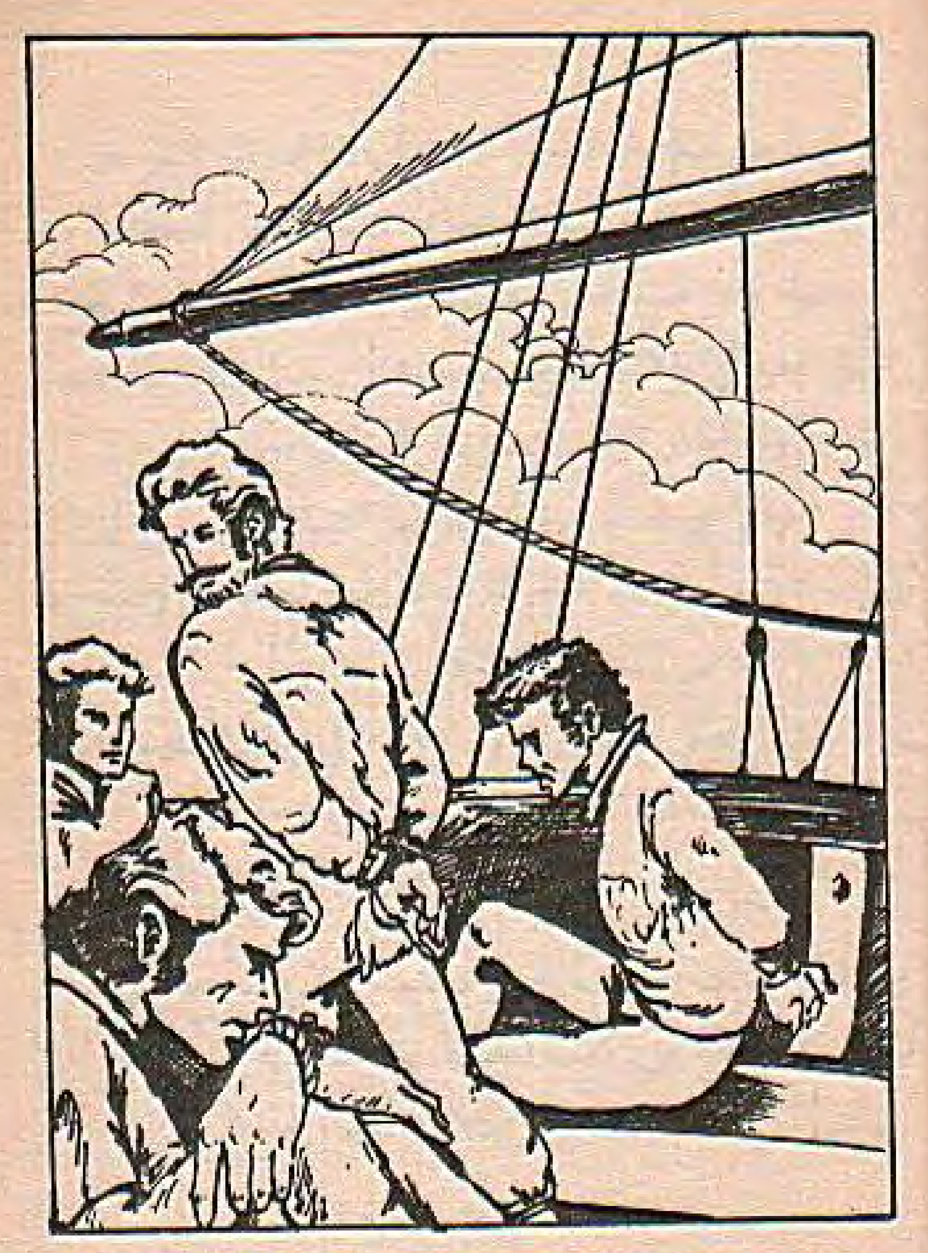
وحين اقترب من وسط السفينة كان كل شئ قد انتهى فهاهم القراصنة بثيابهم الممزقة وأسلحتهم المشرعة ينتشرون على سطح السفينة «دي جراسيا» فيما انطرح عدد من بحارته موثقين بالحبال غير قادرين على عمل شئ .

وحين مدّ يده الى مسدسه كان زعيم القراصنة أسرع منه بحسم الموقف ، فقد عاجله بضربة قوية على يده بعصاه جعل المسدس يسقط على بعد عدة أمتار .

وقبل أن ينبلج الصباح كان البحارة جميعاً مقيدين على سطح السفينة «دي جراسيا» بعد أن نقل القراصنة المجموعة الأولى من بحارة القبطان «مورهوز» من سفينتهم الى السفينة «دي جراسيا» وانشغل القراصنة الآخرون بنقل المؤن والملابس والأموال وكل ما تقع عليه أيديهم الى سفينتهم تلك وأمام نظر القبطان

«مورهوز» وبحارته، وحين نقلوا كل شئ ، فتشوهم واحداً واحداً ولم يبقوا معهم حتى حاجاتهم الشخصية الصغيرة ، ولما بدأ القراصنة يسلبونهم ملابسهم التي يرتدونها جُنّ جنون القبطان «مورهوز» وتحرك بعصبية صارخاً بوجه زعيم القراصنة بحدة ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل من كبلت يداه ورجلاه بالحبال؟ ثم تذكرّ انهم قراصنة وأن ايّ عمل من هذا القبيل سيزيد من همجيتهم ولن يترددوا عن قتلهم وهم القتلة المجرمون الذين تعرفهم البحار جيداً ، وماذا يستطيع أن يعمل لو أمرهم زعيمهم بالقائه والقاء بحارته جميعاً في البحر ؟ لهذا تركهم يفعلون ما يريدون وهو صامت ، وحين انتهى كل شئ وانتقلت كل أموالهم ومؤنهم الى السفينة الأخرى كان الصباح قد بدأ بخيوطه الفضية يغمر المكان كله .

وقف زعيم القراصنة واضعاً غليونه القذر بين أسنانه وهو يضحك فيما رفع يده ذات الخطاف مشيراً الى القبطان «مورهوز» :



« وقبل ان ينبلج الصباح كان البحارة جميعا مقيدين على سطح السفينة « دي جراسيا » » .

- خذوا سفينتكم وارحلوا .. بلغوا تحياتنا لشرطة السواحل .
ثم رفعوا الألواح الخشبية وفصلوا سفينتهم عن السفينة «دي جراسيا» وقد تجمع بحارتها وقبطانهم وهم مقيدون على السطح . ولكي يمعن في إذلالهم صرخ بهم ساخراً ، وما زالت سفينتهم لا تبعد سوى أمتار قليلة عن سفينة القبطان «مورهوز» .
- لا تعودوا الى البحر مرةً أخرى أيها الفتيان .
وتردد صوت آخر من أحد القراصنة فيه من الهزء والسخرية أكثر مما فيه من التنديد والتعنيف :
- أو اجلبوا معكم حبالكم في المرة القادمة كي توفروا علينا مشقة النزول الى الشاطئ لشراء حبال جديدة .

●●●●

وهكذا ابتعدت السفينة «دي جراسيا» وهي تتخبط في البحر بنفس الطريقة التي كانت تتخبط بها سفينة القراصنة حين شاهدها القبطان «مورهوز» بمنظاره أول مرة .

- ٧ -

حين إبتعدت سفينة القراصنة عنهم كان الصباح قد اكتمل، والشمس بدأت ترسل خيوطها الذهبية فيتكسرّ الضياء على أمواج البحر، إلا أن ذلك لم يكن صباحاً طيباً للقبطان «مورهوز» وبحارته، فالمأزق الكبير الذي وجدوا أنفسهم فيه ليس مأزقاً سهلاً، وستبقى آثاره النفسية حية ما داموا في البحر، فلم تكن العودة الى الميناء بخفي حنين ولا فقدانهم أموالهم ومؤونتهم هي التي تؤلمهم، إنما الوضع المزري الذي هم عليه الآن والخدعة الكبيرة التي انطلت عليهم كل ذلك لا يمكن احتماله ولا يمكن السكوت عليه. فماذا سيقولون لأصدقائهم وللناس هناك حين يطالعونهم نصف عراة، موثقين على

سفينتهم ؟ وكيف سيبررون الهزيمة التي أصابتهم وهم البحارة الشجعان المدججون بالسلاح ؟ على اية حال، لابد من التفكير جيداً في الأمر، فهم الآن على سطح السفينة «دي جراسيا» يحيطون بقبطانهم، لا حول لهم ولا قوة.

كان الصمت يخيّم على الجميع وكانوا ينظرون الى القبطان «مورهوز» ليقول شيئاً، فهو القبطان على اية حال وعليه أن يجد منفذاً للخلاص من المأزق الذي هم فيه الآن، وعليه أن يرد كرامتهم، فالهزيمة في معركة لا تعني خسارة نهائية، وبعد صمت طويل بدأ القبطان حديثه قائلاً :

- لن ألوم أحداً غيري، كان علي أن أعرف اللعبة. وساد الصمت ثانيةً، انتظر الجميع أن يقول القبطان شيئاً آخر، فهم لا يريدون أن يتحمل هو وحده تبعة الحالة تلك. ولكن ماذا تراهم يقولون ؟ وأي حديث يمكن أن يخفف من ألم القبطان «مورهوز» واحساسه بالفجيعة ؟ ومن ذلك الصمت القاتل انبرى أحد البحارة قائلاً :

ـ لم يكن التفتيش دقيقاً سيدي القبطان ·
همهم القبطان بكلمات غير واضحة وعيناه الى الارض مما شجع الآخرين على الحديث ·
ـ إذا بقينا هكذا فلن نصل بعد سنة ·
ـ بل لن نصل الى الأبد ·
أجاب القبطان «مورهوز» ثم أضاف :
ـ ليقترب أحدكم ويفك وثاقي بأسنانه·
واقترب أكثر من بحار ليفك وثاق القبطان ، وبعد دقائق كان القبطان طليقاً فقام بنفسه وبدأ يفك وثاق بحارته واحداً واحداً ، ثم بدأ الآخرون بفك الحبال عن رفاقهم حتى تحرروا جميعاً · وبعد أن تخلصوا من قيودهم رفعوا أشرعة السفينة وانطلقوا عائدين الى الساحل ، وقد عادت اليهم تدريجياً روحهم المرحة وكأنهم نسوا كل ما حلّ بهم منذ قليل ، إلاّ القبطان «مورهوز» فقد بقي صامتاً ، شاحباً ، ينبئ صمته عن غضبٍ شديد ·

وحين اقترب منه مساعده لم يلتفت اليه أو يحدثه، فقد بقي ينظر الى جهة الميناء وكأنه ينظر الى ميدان معركة سوف يحتدم أوارها بعد قليل ·
ـ ماذا سنقول لأصدقائنا سيدي القبطان ؟ هل سنقول لهم سلبنا قراصنة أوباش ؟
ـ وماذا تقول غير ذلك ؟
أجاب القبطان مساعده دون أن تتحرك عضلة من عضلات وجهه المتشنج ، ودون أن يلتفت الى مساعده ثم تمتم كأنه يحدث نفسه :
ـ لن أهدأ قبل أن أستعيد كل ما سرقه ذلك اللص اللعين وأعلمه درساً قاسياً في الأخلاق ·

●●●●

وبعد مدة وصلوا الى الميناء وكانوا قد أبطأوا قليلاً كي يصلوا في منتصف الليل حيث اكثر اصحابهم نيام ، وهم في حالة لا

توصف من الجوع والظمأ والأنهاك ، فقد سلبهم القراصنة الماء والطعام والملابس مما جعلهم يلبسون الملابس البالية التي تركها القراصنة أنفسهم ولم يأخذوها لرداءتها ٠

وبعد أيام شاع خبر سلب القراصنة للسفينة «دي جراسيا» ولم يكن ذلك الأمر سراً إذ أن القبطان نفسه تحدث به الى أصدقائه ٠ ومن أول ساعة وضع القبطان فيها قدمه في الميناء راح يعد العدّة لرحلة جديدة لا علاقة لها بالتجارة أو بصيد الحيتان ٠٠

- ٨ -

لم يهدأ القبطان «مورهوز» بعد وصوله الى الميناء لحظة واحدة ، ولم يسترح من عناء تلك الرحلة البائسة يوماً واحداً ، بل بدأ منذ وصوله بجمع عدد من البحارة لمهمة أخرى جديدة ٠

كان عدد كبير من البحارة في الميناء قد وقعوا في الفخ قبله ، وان الكثيرين منهم ما زال يريد أن يثأر لكرامته ولما سلبه منه ذلك القرصان البشع ٠ فقد عاث فساداً في كل مكان ، يقطع الطرق أمام السفن ويهاجم بعضها ليلاً ، وينصب الشراك بطرق جهنمية غريبة للكثيرين ، حتى ضجت منه الموانئ فصاروا يبتعدون عن طريقه تجنباً لشروره ، كان يهاجمهم في

طرقهم ويفاجئهم حيث يعتقدون أنه بعيد عنهم · وها هو القبطان «مورهوز» يقع في شراكه أيضاً ، ولكنه كما يبدو قد أخطأ هذه المرة ، فالقبطان «مورهوز» ليس من صنف الرجال الذين يسهل ابتلاعهم دون ان يغرسوا مدية حادة في منتصف الحلق · إذاً بدأ القبطان «مورهوز» يهئ نفسه لمطاردة هذا القرصان الشرس ، الشرير · كان يجلس في الحانات من الصباح الى المساء يلتقي بالعائدين من البحر ويعرض عليهم مشروعه هذا ·

ـ انك قد لا تكسب من ورائه مالاً وذهباً ولكنك قد تكسب أسماً ، وهذا هو المهم لدى البحار ·

ـ البحار الحقيقي هو الذي يقاتل في البحر لاعلى اليابسة أو في المقاهي والحانات ·

ـ الرجل هو الذي يقف بوجه الأوغاد والقتلة لا الذي يخاصم المسالمين والضعفاء ·

هكذا كان القبطان «مورهوز» يحدث من يلتقي بهم في الحانات ، وكان هـ ا الاسلوب يحرك دماء الشبان الشجعان فيلتفون

حوله ، حتى استطاع في مدة وجيزة ان يجمع عدداً كافياً لمطاردة هذا القرصان ، اضافهم الى عدد من بحارته السابقين ممن فضل البقاء والعمل معه · ثم بدأوا يتتبعون أخباره ويتعرفون على اساليبه الخادعة وطرقه في الايقاع بالسفن التي تقابله· وقبل أن ينطلقوا لمطاردته بأيام كانوا مجتمعين في إحدى الحانات الكبيرة ، حيث قال أحدهم :

ـ إن أصحابه يسمونه «قنفذ البحر» وهو كما قيل لم ينزل في ميناء قط ·

أجاب القبطان :

ـ انني كما ترى لن أنتظره في ميناء بل سألاحقه في أعالي البحار ·

وراح بحارة القبطان «مورهوز» يتحدثون فيما بينهم وهم يشربون النبيذ حتى اكتملوا في دائرة كبيرة ، بعضهم دفعه إحساسه بالواجب الى المشاركة في هذه الحملة ، وبعضهم كان قد تعرض لسلب القرصان في يوم من الايام ، والبعض كان طامعاً باسم وسمعه تنفعه في أيامه القادمة · وهكذا اجتمعت نخبة كبيرة

لديها الرغبة والقدرة على مطاردة «قنفذ البحر» في أي مكان من البحر .

في تلك الاثناء كان ثمة بحار قذر يجلس في ركن منعزل من الحانة ، ويفتح أذنيه لما يدور حول مائدة القبطان «مورهوز» وبحارته وهم يضحكون ويثرثرون بصوتٍ عالٍ .

كان ذلك البحار يشرب بهدوء ويدخن من غليون معقوف الى الأسفل ، وكان يسمع كل ما يدور من أحاديث اولئك الذين يجلسون عن يساره ، وحين سمعهم يهددون ويتندرون بـ «قنفذ البحر» ردد مع نفسه بصوت مسموع :

- هنا تتحدثون عنه بوقاحة ، وفي عرض البحر يسلبكم حتى سراويلكم !!

ثم سمع ضحكة مجلجلة من البحارة تبعها أحدهم وهو يقول :

- أما أنا فبحاجة ماسة الى خطّافة القذر لصيد الدلافين .

ولما أصبحت السخرية بقنفذ البحر مريرة لم يستطع ذلك البحار البقاء في مكانه فقام وغادر الحانه مسرعاً دون أن يعرفه أحد .

●●●●

في صباح أحد الأيام كان كل شئ قد اكتمل ، المؤن والأسلحة وعتادها قد نقلت جميعها الى السفينة ، والسفينة نفسها أعدت إعداداً حسناً اذ ان القبطان «مورهوز» كان يتابع بنفسه كل التفاصيل ، حتى تجهيز البحارة بعتادهم الخاص ، فقد أمر بتسليم كل بحار مائة إطلاقة مسدس . وانطلقوا في صباح أحد الايام الرائقة ولديهم من المعلومات عن سفينة القرصان «قنفذ البحر» أكثر مما لدى القرصان نفسه ، واتجهوا مباشرة لمناطق نفوذه في البحر .

- ٩ -

ثلاثة ايام بلياليها والسفينة «دي جراسيا» تشق الأمواج بصدرها الشامخ كأنها تعرف مهمتها بالضبط ، فقد إجتازت مكانها السابق ثم اتجهت يساراً في الطريق الذي يُحتمل أن يسلكه «قنفذ البحر» تماماً ، ففي مثل هذه الايام يتهيأ لاستقبال السفن العائدة من الشواطئ الافريقية حيث تكون محملة بالجلود والعاج والبهار وجوز الهند وسلع أخرى يسيل لها لعاب القراصنة وقطاع الطرق ·

في تلك المنطقة الممتدة عشرات الكيلومترات كانت السفينة «دي

جراسيا» تروح وتجيء ولاهمّ لبحارتها وقبطانها غير مراقبة البحر والنظر الى السفن المبحرة فيه ·

- «إنها منطقته المفضّلة» قال القبطان «مورهوز» ذلك لمساعده وهو يرفع المنظار الى عينيه ويدير رأسه متأملاً أطراف البحر البعيدة ، باحثاً عن أي أثر لسفينة القرصان · مرت لحظات سكون طويلة كان فيها القبطان منهمكاً في بحثه بينما أخذ مساعده يتأمله بهدوء علّه يجد علامة في وجهه تنبئه عما يرى في منظاره المقرب ·

ولما طالت فترة السكون ولم يجد المساعد أية علامة في وجه القبطان تدل على انه قد رأى سفينة في البحر ، قطع ذلك السكون موجهاً كلامه الى سيده

- «انه قناص مخادع، ولا يرمى شباكه في مناطق مرور السفن»

في تلك اللحظة بالذات جاءه رد القبطان «مورهوز» هادئاً بطيئاً وكأنه يحدث نفسه : «لقد وقع القناص في الفخ ، هذه

سفينة مقبلة» ·

أصيب المساعد بالذهول ولم يستطع أن يفعل شيئاً غير أن يمد يده ويخطف المنظار من يدي القبطان وقد نسي أصول البحارة في التعامل مع قباطنتهم ، فقد كان فرحه طاغياً ولم يصدق ما قاله القبطان «مورهوز» من أن سفينة مقبلة عليهم · وحين نظر الى الجهة التي كان القبطان ينظر اليها رأى بعينيه سفينة غير واضحة المعالم ورأى ايضاً علماً كبيراً يرفرف فوق ساريتها لم يستطع أن يتبين معالمه وهو على هذا البعد الكبير عنها ·

وبلحظات وقف القبطان «مورهوز» في منتصف السطح وأطلق بصوته الجهوري تعلياته الى البحارة المنتشرين في أرجاء السفينة ، وسرعان ما اصبح الجميع على أهبة الاستعداد ، فقد كان البحارة ينتظرون بفارغ الصبر تلك اللحظة التي يواجهون فيها عدوهم اللدود «قنفذ البحر» وها هو الآن أمامهم وجهاً لوجه ، يتحداهم ان يقفوا في طريقه، وربما سيحاول معهم لعبة جديدة، فهو لا يغامر ويتقدم نحو أية سفينة الاّ وتكون النتيجة محسومة لصالحه ·

ولكن من يدري ؟ فربما وقع «قنفذ البحر» في الفخ هذه المرة؟ وربما سيكون صيداً دسماً بعد أن كانت السفن الأخرى «صيداً دسماً» له ولقراصنته الأوغاد ؟ راحت السفينة «دي جراسيا» تشق الماء متجهة نحو سفينة القراصنة ، وقد تهيأ الجميع لمعركة فاصلة يستعيدون فيها كرامتهم التي هُدرت بخديعة شائنة في عرض البحر · وقف القبطان مورهوز قرب مساعديه كما لو كان قائداً عسكرياً يقود جيوشه نحو النصر وليس قبطاناً لسفينة صغيرة تجوب البحار بحثاً عن الحيتان · في تلك اللحظة التفت الى مساعده وكأنه يوجه اليه آخر تعلياته بشأن المعركة المرتقبة قائلاً :

ـ «لن ندعه يفلت ، هذا القنفذ الرطب ، وليبقَ طاقم الرماة قرب مدافعهم طوال الوقت» ·

في تلك اللحظة بالذات ، وقبل أن ينهي عبارته تلك إنحرفت سفينة القراصنة الى جهة اخرى وانطلقت هاربة في عرض البحر جُن جنون القبطان «مورهوز» وراح يصدر أوامره بالانطلاق خلفها بسرعة ، فها هي اللحظة المناسبة تقفز من بين يديه كما

تقفز سمكة صغيرة وتغوص في الأعماق . لقد هرب القرصان من أمامه .

ـ وراءها بسرعة ، هذه فرصتنا الوحيدة .

صرخ القبطان «مورهوز» بوجه مساعديه وقد تملكه الغضب وبان عليه هياج شديد لم يشهده بحارته منذ ان بدأوا العمل تحت إمرته . وعاد يقفز هنا وهناك صائحاً :

ـ أيها الشجعان ، لا تدعوها تفلت ، وراءها بسرعة .

وبلحظات سرى هياج القبطان وحماسته في نفوس البحارة فانطلقت «دي جراسيا» كالمجنونة تشق مياه البحر باتجاه السفينة الهاربة ، ورفع القبطان مورهوز منظاره من جديد وألقى نظرة خاطفة على سفينة القراصنة ، وبنفس السرعة رفع المنظار عن عينيه ووقف أمام مساعديه وقد تغيرت ملامحه تغيراً كاملاً ...

لقد زال عنه الغضب والهياج وعاد كما عرفه بحارته هادئاً وقوراً يصدر تعليماته بلا صراخ ولا ضوضاء.

ـ «لقد عادت فغيرت اتجاهها نحونا» .

قال القبطان ذلك بهدوء تام وكأنه أصيب بصدمة من هذا التصرف المتناقض الذي أبداه نحوهم «قنفذ البحر» وصمت مساعدوه مندهشين أيضاً وراح أحدهم يتمتم بصوت مسموع :

ـ أنا أعرف قنفذ البحر ... هذا القذر لا يهرب.

ـ بل هو مخادع ولا يقابلنا وجهاً لوجه أبداً .

أجابه مساعد آخر .

لم يكن حديثهم هذا أمام القبطان «مورهوز» عبثاً ، فقد عرف الجميع أن «قنفذ البحر» يخطط للايقاع بهم بطرق خبيثة تبدو في الظاهر متناقضة وغريبة إلا أنها سرعان ما تنجلي عن ذكاء خارق وحيل بارعة في المراوغة والتضليل .

فماذا ترى يقصد من وراء هروبه في البداية ؟ ثم ماذا دبر لهم فغيرّ إتجاهه ثانيةً نحوهم ؟

هذه الأسئلة لم يجد لها القبطان «مورهوز» ولا مساعدوه أي تفسير .

وعلى أية حال لن يجديه كل ذلك نفعاً ، فهم الآن على أهبة الاستعداد للقتال ، وليطرح كل حيله وألاعيبه في ساحة القتال فلن تكون أوسع من سطحي سفينتين طافيتين في هذا البحر الواسع ، العريض. إنها بلا شك ساحة ضيقة للقتال وستضيق عليه وعلى بحارته الأوغاد بعد قليل ولن تتسع لخدع اخرى بعد الآن . في تلك الأثناء رفع القبطان منظاره الى عينيه ، فقد أصبحت سفينة الأعداء قريبة من سفينته ، واصبح التلاحم الدامي بينهما قريباً أيضاً . وفجأة صرخ القبطان وهو يرى شيئاً لم يكن يتوقعه :

- لا أصدق عيني .. انهم يعملون معهم .

- ماذا .. ماذا قلت - سيدي القبطان - ؟

أجابه أحد مساعديه

- انهم بحارتنا الثلاثة المفقودون ... يعملون مع القراصنة. قال ذلك القبطان «مورهوز» وقد بدا الاستياء واضحاً على ملامحه .

- ١٠ -

حين إقتربت السفينة «دي جراسيا» من سفينة القراصنة ورفع القبطان «مورهوز» المنظار الى عينيه هاله ان يرى بحارته الثلاثة المفقودين ، جورج وباترك ودونالد ، على ظهر السفينة الثانية ، فظن انهم خدعوه وعملوا مع القراصنة ! وقد فاته أن ينظر الى البحارة الآخرين والأعلام التي ترفرف على سارية السفينة . ولو دقق جيداً لرأى الملابس الرسمية الزرقاء التي يلبسها البحارة والأشارة الملكية الكبيرة المرسومة على صدر السفينة والاعلام الاسبانية وهي تخفق فوق ساريتها المثلثة ، ولرأى ايضاً صفاً متصلاً من المدافع الكبيرة التي لا تملكها أية

سفينة اخرى هناك غير سفن المملكة المدجّجة بالسلاح ·
ولو لم يأخذ وقتها أحد مساعديه المنظار ويتأكد من كل ذلك لكان القبطان «مورهوز» قد أصدر أوامره باطلاق النار على السفينة الاخرى من دون تردد ، ولوضع نفسه وبحارته الآخرين في قلب الجحيم ، فلابد ان تكون النتيجة عكس ما كان يتصور ، فليست «دي جراسيا» بمدافعها الصغيرة وبحارتها الثلاثين قادرة على مقابلة سفينة ملكية حربية مزودة بأضخم المدافع وأشدها فتكاً وأبرع الرماة المتمرسين بالمعارك البحرية العنيفة · وحين عرف القبطان «مورهوز» من مساعده كل ذلك حمد الله على انه لم يتسرع في الامر ويكلف نفسه وبحارته البائسين خوض معركة خاسرة ستكون نتائجها وبالاً على سفينتهم الصغيرة وعليهم جميعاً ·

••••

إقتربت السفينتان من بعضها حتى صارت المسافة بينهما لا تتجاوز المائتي متر ، وظلتا تسيران متجاورتين تفصلهما هذه

المسافة القصيرة ، إذ لا يمكن أن تقتربا من بعضها اكثر من ذلك خوف الأصطدام، ورفع البحارة جميعاً أياديهم ملوحين لزملائهم بالتحية، فيما رفع هؤلاء أيضاً أياديهم يردون على التحية ·
وقبل أن يبادر القبطان «مورهوز» بعمل شئ راح أحد البحارة الأسبان ينادي القبطان بآلة أشبه بالبوق :
ـ أرسلوا زورقاً لنقل أصحابكم ، مع تحيات القبطان «پيدرو» وبحارة السفينة «خيتانو» للقبطان «مورهوز» وللبحارة جميعاً ·
وارتفع صوت أحد مساعدي القبطان وهو يرد على التحية :
ـ تحيات القبطان «مورهوز» وكل بحارة «دي جراسيا» الى القبطان «پيدرو» وجميع بحارة السفينة «خيتانو»· القبطان «مورهوز» يحييكم مرة ثانية ويشكركم على مساعدة بحارته الثلاثة المفقودين ·
وبعد أن انتهى المساعد من ردّ التحية أنزلوا أحد الزوارق الصغيرة الى الماء ونزل اليه إثنان من البحارة وراحا يجذفان باتجاه السفينة الكبيرة فيما كان البحارة الثلاثة جورج وباترك

ودونالد يقفون على سياج سطح السفينة ينظرون الى رفاقهم بفرح عظيم ·

••••

أمر القبطان مورهوز أن يغير بحارته الثلاثة ملابسهم الغريبة ، فقد كانوا يرتدون سراويل زرقاء رسمية تفضل بها عليهم بحارة السفينة «خيثانو» وقمصاناً باليه قديمة ، وكان يبدو عليهم الضعف والهزال فكأنهم قضوا الأيام العشرة الماضية دون طعام ، أو كأنهم غادروا الفراش تواً من مرضٍ ألمّ بهم فأحالهم الى أشباح هزيلة · وبعد أن لبسوا الملابس الجديدة التي هيأها لهم رفاقهم في السفينة ذهبوا الى قمرة القبطان «مورهوز» كما أمر هو بذلك ، وقبل أن يسألهم عن سبب ضعفهم وهزالهم بادرهم بقوله :

- كل الألغاز عرفتها إلا لغز اختفائكم وظهوركم على سطح هذه السفينة الأسبانية !!

وراح جورج يحكي للقبطان القصة من أولها · كيف وصلوا الى السفينة الغريبة فوجدوها خالية ؟ وكيف تم تفتيشهم السطح والعنابر واحداً واحداً ؟ الى دخولهم المطبخ حيث فوجئوا بأكواب الشاي الثلاثة والدجاجة المسلوقة التي يتصاعد منها البخار · وحين أرادوا الخروج من السفينة والعودة الس سفينتهم فاجأهم القراصنة على السلّم وانهالوا عليهم ضرباً فلم يتذكروا بعد ذلك شيئاً ، وحين فتحوا عيونهم ثانية بعد ان أغمي عليهم بعض الوقت وجدوا أيديهم مقيدة وأفواهم مكممة وحولهم عدد من القراصنة القذرين·

••••

صمت القبطان وهو يستمع الى بحارته الثلاثة وهم يروون تفاصيل اختفائهم كل تلك الأيام ، وبعد أن انتهوا من سرد الحكاية ، قال القبطان ثانية :

وكيف تخلصتم منهم بعد ذلك ؟

أجاب جورج باسماً :

ـ قل كيف تخلصوا منا ؟

لقد نسونا داخل المخبأ ثم تذكرونا بعد ذلك ، وحين تذكرونا قذفونا في عرض البحر بقارب صغير مفكك ، وبقينا عشرة أيام تتقاذفنا الأمواج ونحن في هذا الزورق الصغير وليس معنا سوى القليل من الماء والطعام رماه «قنفذ البحر» خلفنا كما يرمي السيد قطعة من اللحم الى كلابه . وكنا نقتسم هذا الطعام القليل وجبة واحدة كل يوم ، ولا تزيد هذه الوجبة على ما تحمله الملعقة الصغيرة من الطعام .

وكنا نبلل شفاهنا من قنينة الماء العذب الصغيرة كي لا نموت من الظمأ ونحن في عرض البحر ، إلى أن رأينا هذه السفينة الاسبانية .

ـ وكيف تسنى لهم رؤيتكم وانتم في هذا الزورق الصغير ؟

سألهم القبطان وقد بدا التأثر واضحاً على وجهه أجابه أحدهم :

ـ لقد رأيناها نحن أولاً ، وكان الوقت فجراً والضباب يغطي الافق ، كانت السفينة ما زالت مضاءة بمصابيح صغيرة تبعث نوراً شاحباً ضئيلاً ، وقد اعتقدنا أول الامر أن الضوء يصلنا من كوخ صغير في جزيرة قريبة فأوشكنا أن نقفز الى الماء من الفرح والسرور ولكن سرعان ما عرفنا أنها ليست جزيرة ، فقد كان الضوء يقترب ويتأرجح بسبب إهتزاز السفينة وكان الماء الذي تحتنا يشير الى أن الارض ما زالت بعيدة عنا ، فالماء أزرق ، عميق الزرقة مما يدل على أن الأعماق ، بعيدة الغور في هذه البقعة من البحر .

صرخنا بأعلى أصواتنا ، ولكن أحداً لم يسمع تلك الأصوات اليائسة والنداءات المبحوحة بسبب الجوع والعطش والهزال ، وكلما اشتد صراخنا كلما خفت وصار أشبه بصراخ من يقع في نومه تحت كابوس ثقيل ، وكادت السفينة تمضي من أمامنا وتغيب عن الأنظار ونحن لا نبعد عنها سوى ثلاثمائة متر لا غير وأخيراً خطرت ببال جورج فكرة لولاها لكنا الآن غرقى في

أعماق المحيط ، أو في بطون سمك القرش الجائع ، المتشوق دوماً للحم البشري.

قال جورج : «لنضرب مرةً واحدة وبقوة بمجاذيفنا على خشب القارب»

جمعنا قوانا المتبقية وبحماسة الخائف من الموت يرى فرصة أخيرة في النجاة ، رحنا نضرب باطن الزورق الخشبي بالمجاذيف .

ويبدو ان أحد الحراس قد تنبه الى هذه الخشخشة البعيدة المنبعثة عن يمين السفينة فتثاءب وفتح عينيه بصعوبة ، واستغرق مرةً اخرى في غفوته ، وحين تكررت ضرباتنا راح الحارس ينظر الى جهة الصوت وقد فتح عينيه هذه المرة جيداً

وقد أخبرنا هذا الحارس فيما بعد قائلاً :

لقد رأيتكم كما يرى الحالم في النوم مثل أحياء يائسة توشك أن تغرق وقد تعلقت بخشبة طافية على الماء . ثم طار النعاس من عيني فرأيتكم تضربون وتصرخون كالمجانين فأخبرت الحراس

الآخرين ، وحين دققنا النظر ظننا انكم تتشاجرون فيما بينكم وانكم قد أجهزتم على احدكم داخل القارب ورحتم تنهالون عليه بالمجاذيف . لقد كان منظركم غريباً ، وكان لابد لنا من الاقتراب منكم كثيراً لكي نستطلع الأمر ونقف على حقيقة ما تفعلون ، وهكذا حدث وتم - بعد ذلك - انقاذكم .

● ● ● ●

« هذه هي قصتنا بالتفصيل - سيدي القبطان - » وقبل أن ينهي البحار عبارته الأخيرة سمع الجميع دوياً هائلاً تبعته طلقات متقطعة أخرى .

رفع القبطان «مورهوز» رأسه وما زال متأثراً بحكاية البحارة الثلاثة ، وقال :

- إنها رسالة استغاثة .

- ١١ -

سمع الجميع دوياً عالياً تبعته طلقات متقطعة أخرى ، عرف القبطان «مورهوز» انها رسالة استغاثة تبعثها احدى السفن طالبةً النجدة . فهناك لغة يعرفها البحارة المترسون وكل من قضى شطراً من حياته في البحر ، والاشارة التي سمعها الجميع تعني : «إننا في مأزق كبير ، أسرعوا لانقاذنا»

وراح البحارة ينظرون الى أطراف البحر بحثاً عن السفينة التي بعثت برسالتها تلك ، ولم يطل البحث كثيراً فسرعان ما ظهر في الافق خيط دخان يرتفع عالياً ، وحين رآه القبطان «مورهوز» عرف لماذا أرسلت السفينة رسالتها تلك ، فصاح في

بحارته قائلاً :

- إتجهوا اليها .. إنها تحترق .

في نفس اللحظة كان خيط الدخان قد أصبح كتلةً كثيفة مظلمة ، وبدا أن السفينة تعاني حقاً من حريق هائل يوشك ان يلتهمها بمن فيها .

ارتفعت الاشرعة على ظهر السفينة «دي جراسيا» وانطلقت مسرعة باتجاه السفينة المحترقة ، وكلما اقتربت اكثر كلما ازدادت كثافة الدخان وبان اللهب الاحمر وهو يلتهم جانباً من جوانب السفينة . وفجأة حدث شئ لم يكن في الحسبان ، فقد ارتفعت الاشرعة في السفينة المحترقة وانطلقت في الاتجاه المعاكس، وطار صواب القبطان «مورهوز» من هذه الاحداث الغريبة التي تقع أمام عينيه ، فالسفينة ما زالت تحترق وقد طلبت النجدة قبل قليل ، فما بالها تفر الآن من امامهم والنار تلتهب في احد جوانبها وتكاد تلتهمها كلها ؟

وما إن رفع منظاره الى عينيه حتى عرف السر . اطلق صوته

هادراً مثل زئير الأسود :

ـ أطلقوا النار ... انه قنفذ البحر القذر . وبلحظات اشتعل الفضاء الذي يفصل بين السفينتين وراحت جميع المدافع تطلق قذائفها دفعة واحدة باتجاه سفينة القراصنة . في تلك الاثناء سقطت كرة كبيرة من النار المشتعل في البحر . انها خدعة اخرى من خدع هذا القرصان اللعين ،لقد اضرم النار في قطعة كبيرة من المطاط وضعها باحد جوانب السفينة ووضع تحتها قاعدة من الصفيح وقد أحاطها احاطةً تامة كي لا تتجاوز مكانها الى جوانب السفينة الاخرى ، وحين اقتربت «دي جراسيا» ورأى مدافعها الكثيرة ـ وكان قد ظن اول الامر أنها احدى السفن التجارية المحملة بالبضائع والأموال ـ عرف أنه قد وقع هذه المرة في الفخ الذي نصبه بنفسه وان السفينة التي سبق له أن سلبها قد عادت ثانيةً تبحث عنه ، وهي الآن مدججة بالسلاح وبالرجال الشجعان .

وهكذا فعل فعلته ورمى النار الوهمية التي أراد بها خداع

القبطان وفر لائذاً بالبحر المترامي الأطراف مبتعداً عن ملاقاة عدوه اللدود .

ولكن أين سيهرب والقبطان «مورهوز» يلاحقه ؟ كيف سينجو وهناك ثلاثون بحاراً يملأهم الغيظ مما فعل بهم في أحابيله وخدعه السابقة ، وأمنيتهم الوحيدة ان يظفروا به ويثأروا لأنفسهم وأموالهم التي سلبت ؟

وهكذا بدأت المطاردة .. سفينة القراصنة المفككة ، المجهدة ، التي لم ترس على بر منذ اشهر والسفينة «دي جراسيا» التي اعيد بناؤها وجددت اشرعتها ومجاذيفها اكثر من مرة ، وبدا بعد دقائق أن الصراع غير متكافئ ، وان النسر لابد من ان ينقضّ على الطائر الصغير الذي يحاول يائساً الخلاص من مطاردته .

وتوقفت سفينة القراصنة وارتفع العلم الابيض على ساريتها معلناً الاستسلام .

ونظر القبطان «مورهوز» الى سفينة القراصنة وهي في حالتها تلك وراح يضحك عالياً ، فماذا ترى سيفعل هذه المرة ؟ هل

يترك القرصان يرسم له خطة جديدة للايقاع به أم يظل يطلق النار عليه وعلى بحارته القذرين ويخلص البحر من شروره وآثامه ؟

كان رأي مساعديه ان يغرقوا السفينة بالمدافع ولا يدعوا للقرصان فرصة اخيرة لوضع فخ جديد في طريقهم ، فربما كان الذي فعلوه جزءً من خطتهم تلك، وما ذاك الحريق الكاذب والفرار في عرض البحر ثم الوقوف فجاةً ورفع الراية البيضاء إلا شرك وخدعة جديدة قد توقعهم ثانية في أسر هذا القرصان الشرس ، بعدها لن ينفع اللوم ولن يجدي الندم ·

ولكن القبطان «مورهوز» كان واثقاً ثقةً كبيرة بنفسه ومطمئناً اطمئناناً كاملاً من أن «قنفذ البحر» قد وقع هذه المرة في يده ولن تنفعه حيله والاعيبه بشئ ، فأوعز الى بحارته بعدم إطلاق النار ، واللحاق به ثم القبض عليه وعلى بحارته وهم أحياء · ولكنه لم ينسَ أن يعطي تعليماته الى رماة المدافع بالبقاء خلف مدافعهم على أهبة الاستعداد لاطلاق النار عند الضرورة ·

••••

إستمرت السفينة «دي جراسيا» تشق طريقها نحو سفينة القراصنة التي ما زالت ساكنة في عرض البحر لا تتحرك وما زالت رايتها البيضاء ترفرف على ساريتها مشيرةً الى أن القرصان يعلن استسلامه دون شروط· وحينما رفع القبطان «مورهوز» المنظار الى عينيه لم يرَ على سطح السفينة اية استعدادات تثير الشك والريبة فالبحارة بملابسهم الممزقة القذرة واجمون على السطح وليس في ايديهم اي سلاح يدافعون به عن انفسهم · ونظر الى احد جوانبها فرأى مدفعاً قديماً صغيراً اتجهت فوهته بعيداً عن المرمى فعرف بخبرته الطويلة ان القراصنة غير مستعدين للقتال وانهم قد اسلموا مصيرهم للقبطان «مورهوز» بلا تردد·

في تلك الاثناء إقتربت السفينة «دي جراسيا» من سفينة القراصنة وقد استعد البحارة وأخذ كل واحدٍ مكانه بانتظار ما يطرأ على الموقف من تغيير وما قد يخبئه القراصنة من مفاجآت غير متوقعه · حتى كادت السفينتان ان تلتحما معاً ، وحين وضع البحارة الألواح الخشبية بين السفينتين واندفع المكلفون

بالاقتحام الى سطح السفينة الاخرى ، كان القراصنة قد وضعوا أيديهم على رؤوسهم لتجنب اثارة هؤلاء المندفعين والمدججين بالسلاح .

وبلحظات تم اقتحام السفينة والسيطرة عليها ، حيث وقف القبطان «مورهوز» على السطح وصاح بالقراصنة ان يجلسوا وأيديهم على رؤوسهم وحين تم له ذلك ونقل نظره بين سحناتهم المريضة المجهدة لم يجد بينهم زعيمهم : «قنفذ البحر» .

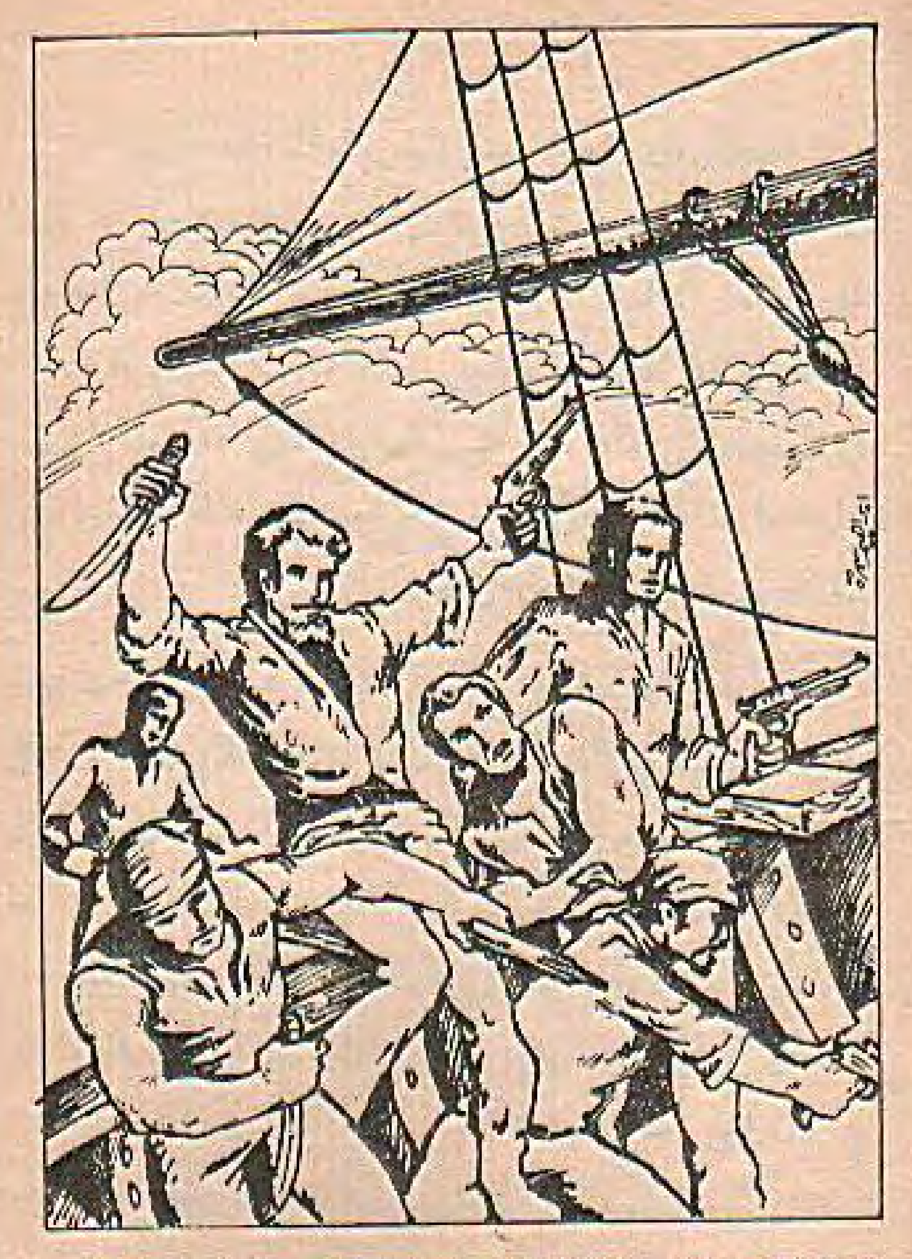
فصرخ بوجوههم كأنه يحاول ان يطعن ما تبقى لديهم من صلف وكبرياء :

- اين ذهب قنفذكم القذر ؟

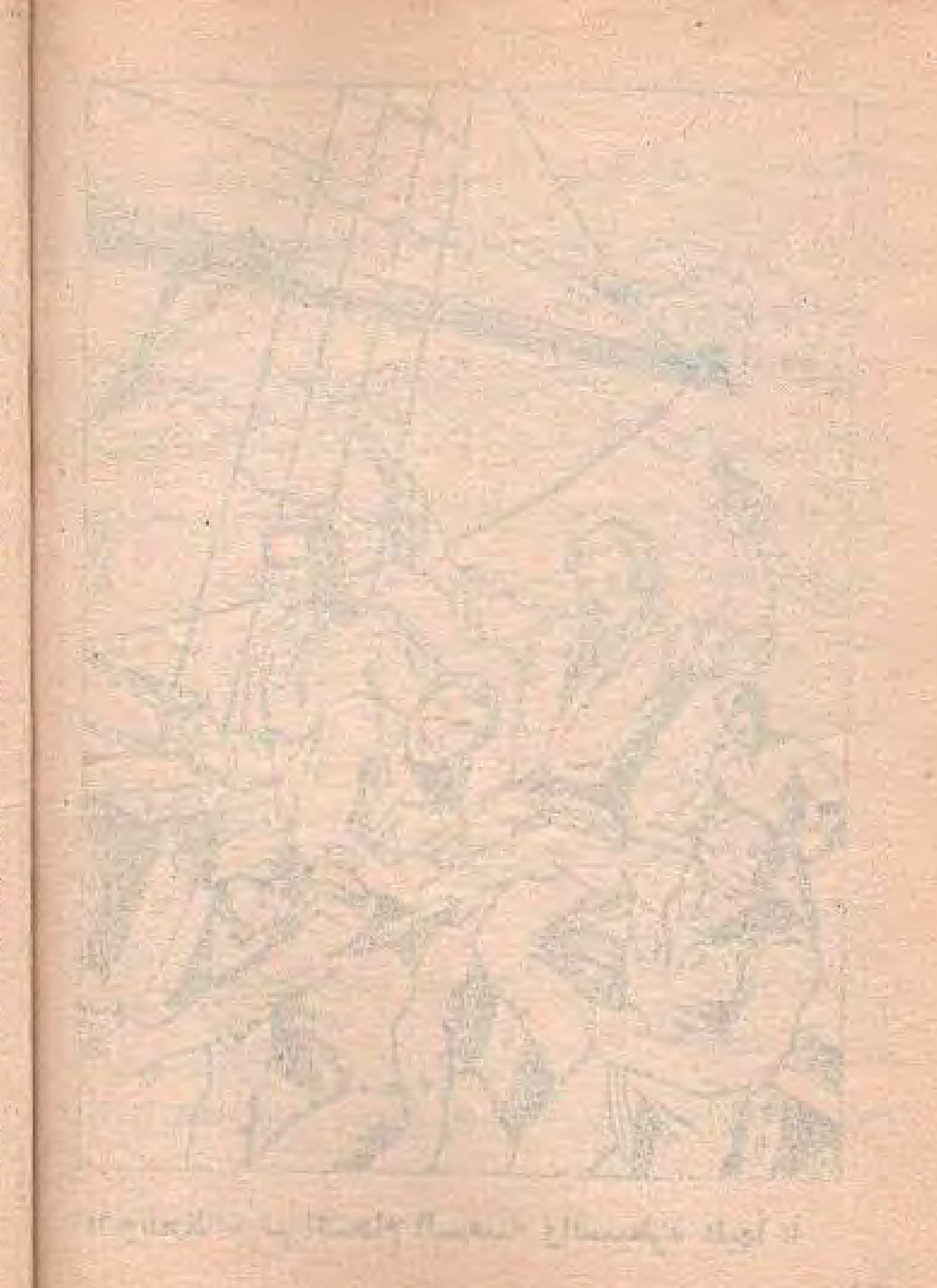
ولما لم يرد عليه احد منهم صرخ بهم صرخة اخرى ارتجت لها اركان السفينة :

- تكلموا قبل أن اقذفكم في البحر طعماً للكواسج والأسماك، أين قبطانكم المشوه ؟

ومن بين الجمع الجالس في سكون على السطح انبرى احدهم قائلاً



« وبلحظات تم اقتحام السفينة والسيطرة عليها »



ـ أنا القبطان في هذه السفينة وليس هناك احد غيري ٠

نظر القبطان «مورهوز» الى البحّار القذر بدهشة، أحقاً ما يقول هذا القرصان البائس ؟ أيكون قد أخطأ مرةً اخرى أم انه وقع في الفخ ، وما هذا إلاّ جزء من خطة جديدة للعبث به ؟

هل السفينة التي أمامه هي نفس السفينة التي اعترضت طريقه وسلبته كل ما يملك قبل ايام ؟ أم أنها سفينة اخرى من سفن الصيادين المنتشرة بالمئات في عرض البحر ؟

نظر الى وجوه البحّارة القذرين فلم يستطع تمييز أي واحد منهم ٠ «قنفذ البحر» هو القرصان الوحيد الذي انطبعت ملامحه في ذاكرته ، أما هؤلاء المتشابهون فلا يتذكر أياً منهم على الاطلاق ، أيجوز ان تكون السفينة التي يقف على سطحها الان غير السفينة تلك ؟ وان البحارة البائسين الذين استسلموا له وانصاعوا لأرادته غير اولئك القساة المتعنتين الذين سلبوه حتى ملابسه التي تغطي جسده ؟

لا يمكن ذلك ابداً ٠٠٠ ولكن كيف له أن يتحقق ؟ مضى

القبطان «مورهوز» سارحاً في أفكاره فترة من الوقت ثم انتبه الى نفسه وسأل البحّار الذي زعم انه قبطان السفينة :

- ولكنني أعرف هذه السفينة ٠٠ إنها سفينة القرصان «قنفذ البحر»

- نعم ، كانت سفينته واشتريتها منه قبل أيام ٠

••••

بعد استجواب جميع البحارة إدعوا ان هذه السفينة كانت للقرصان «قنفذ البحر» ثم اشتراها القبطان الجديد وهم يعملون الآن في صيد الحيتان في البحار ولا علاقة لهم بأعمال القرصنة أبداً ٠

وكاد القبطان «مورهوز» يصدق هذه الكذبة ، فما ذنب صاحبها الجديد إذا كان قد إشتراها من رجل شرير ؟ ولماذا يحاسبه على ذنب إقترفه سواه ؟

في تلك اللحظة إقترب «جورج» و «ودونالد» و «باترك» البحّارة

الثلاثة الذين سجنوا في المخبأ السري قبل أيام ، وقال «جورج» مخاطباً القبطان «مورهوز» :

- لا تصدق ما قالوه ٠٠٠ انه بالتأكيد في مكان ما من السفينة،

وقال دونالد : أكاد أتذكر الآن كيف أخرجونا من المخبأ السري ، فإننا لم نصعد سلماً ، بل كنا نسير في ممر ضيق وعيوننا مشدودة ٠

وراح القبطان «مورهوز» والبحارة الثلاثة يتفحصون السفينة من أحد أطرافها تفحصاً دقيقاً ، وبعد قليل رأى باترك خشبة مربعة يختلف لونها قليلاً عما يجاورها من خشب السفينة ، فالتفت الى القبطان وسأله :

- ألا يستطيع سيدي القبطان إزاحة هذه الخشبة قليلاً ؟

أخذ القبطان مدية من أحد البحارة وراح يعالج تلك الخشبة حتى سقطت الى جواره ٠ في تلك اللحظة فوجئ القبطان بظهور ممر سري مظلم يبدأ من تلك البوابة الصغيرة ٠

ولكي لا يفاجأ من جديد بخدعة غريبة أمر بأن يوثق جميع

القراصنة الذين على السطح بالحبال وأن يتهيأ عدد من البحارة المسلحين بمرافقته لاقتحام الممر السري ، ولم ينسَ أن يحمل معه شعلة تنير طريقه المظلم الطويل ٠

أخذ القبطان «مورهوز» يسير في المقدمة وخلفه ثلاثة من البحارة الشجعان وقد أحنوا رؤوسهم لكي لا ترتطم بالسقف الخشبي الواطىء ، وكان الضوء المنبعث من الشعلة ينير طريق الممر المظلم فتظهر هنا وهناك أدوات وأسلحة خبأها القراصنة لوقت الحاجة ، مدى وعصي وحبال موضوعة على الجوانب بانتظام ، وفي نهاية الممر وضعت صناديق العتاد الصغيرة فوق بعضها وما زالت على حالها لم تفتح بعد ٠ ولكن لم يظهر اي أثر للقرصان «قنفذ البحر» ٠

وبعد ان تم تفتيش الممر تفتيشاً دقيقاً أمر القبطان «مورهوز» بحارته الثلاثة بالخروج ، وعاد الجميع ادراجهم وخلفهم القبطان نفسه ٠ في تلك اللحظات إستعاد في ذهنه رواية الرجل وادعاءه شراء السفينة من القرصان «قنفذ البحر» فبدت صادقه لا غبار

عليها ، وأحس أنه قد أقدم على فعلة ظالمة بمهاجمته السفينة وتكبيل بحارتها بالقيود ، فما ذنب صاحبها الجديد إن كان قد اشتراها من لص أفاق وقرصان عمت شروره آفاق البحر كلها ؟

وقرر بينه وبين نفسه أن يتقدم الى القبطان الموثق ويعتذر له ويفك قيوده وقيود بحارته بنفسه ٠ في تلك اللحظة أوشك أن يصل الى نهاية الممر حيث خرج البحارة الثلاثة المرافقون له ، وما إن وضع قدمه الى الخارج وأحنى رأسه الى الأسفل متهيئاً للخروج حتى سمع وراءه صوت سقوط شئ على الارض فجمد في مكانه دون أن يلتفت الى الخلف ، فقد تركه قبل قليل خالياً إلا من أدوات وصناديق صغيرة لا تخفي خلفها طفلاً صغيراً ، فمن أين ينبعث هذا الصوت يا ترى ؟

وعادت الى ذهنه دفعة واحدة كل الاحداث الغريبة التي واجهتهم من البداية ، وراح يتذكر تفاصيل مشاهدة السفينة الغريبة أول مرة وغياب بحارته الثلاثة وأقداح الشاي وسقوط جاكسون في البحر والحريق المفتعل في هذه السفينة ، حتى لم

يعد يستطيع التمييز فأغمض عينيه لحظة ثم قفل راجعاً في الممر وما زال المشعل في يده لم ينطفئ بعد ·

لابد له من مواجهة الأمر بنفسه هذه المرة ، لم يعد يحتمل الصبر على حيل هذا المجرم الشرير· فأذا كان هناك سر فالأحرى به أن يكتشفه الآن وبسرعة حتى لو دفع حياته ثمناً لذلك · تقدم الى الأمام فاجتاز الأدوات وصناديق العتاد ، وقبل أن يصل الى نهاية الممر سمع صوتاً خافتاً أشبه بالاحتكاك ، يصدر عن يساره ، فرفع المشعل قليلاً ونظر الى جهة الصوت فرأى خشبة مربعة ملقاة على الأرض ، فتذكر انه لم يرَ تلك الخشبة من قبل ، وما إن إقترب منها قليلاً حتى فوجئ بعصا قصيرة تنسحب بهدوء الى الداخل· كان هذا المشهد على تفاهته مفزعاً ، ففي تلك اللحظة بالذات كان القبطان «مورهوز» يتوقع حدوث شئ ، وها هو الشئ المتوقع يحدث · فقد مرّ قبل قليل وفتش هذا الدهليز المظلم تفتيشاً دقيقاً فلم يجد أي شئ يثير الانتباه ، ثم فجأة سقطت خشبة مربعة على الارض وسمع صوت

سقوطها ، وها هو يرى بعينيه عصا غليظة تنسحب وكأنما هناك يد تسحبها · ولكن القبطان «مورهوز» لم يهتز لهذه الأحداث الغريبة حتى لو كان وراءها الشيطان نفسه · فتقدم وقد سحب مسدسه بيد ورفع المشعل باليد الأخرى· وبنصف ثانية كان يقف بجرأة لمواجهة اي خطر جديد يتهدده ·

اقد عرف الآن شيئاً جديداً ، وها هو سر آخر يكشف عن نفسه بسقوط الخشبة على الأرض ، انه ممر سري آخر داخل الممر الأول وقد سقطت بوابته الصغيرة ، ولابد أن عدداً من البحارة المسلحين يختبئون فيه ، فقد رأى بعينيه عصا غليظة تنسحب الى الداخل ، فهل يعود الى بحارته ويخبرهم بالأمر ؟ ماذا سيقول لهم؟ هل يقول لهم انجدوني ، وهو لم يرَ سوى العصى الغليظة تلك ؟ وإذا أخبرهم واقتحموا الممر الجديد ولم يجدوا شيئاً فماذا سيقول وهو القبطان الشجاع الجرئ ؟

- لا ·· لن أخبر أحداً قبل أن اكتشف الأمر بنفسي ·

هكذا حدث القبطان «مورهوز» نفسه وهو يمد رأسه في الممر

الجديد. في تلك اللحظة كان الضوء المنبعث من المشعل يسقط على كومة من الملابس القذرة وقد تكشفت عن عينين ذابلتين ترتجفان بفعل الضوء الساقط عليهما من المشعل .

كان المنظر غريباً حقاً ، فالممر السري الجديد ليس سوى غرفة صغيرة واطئة لا يزيد طولها على مترين وعرضها على متر ونصف ، وقد قبع في نهايتها رجل متدثر بالأسمال لا يبدو منه سوى رأسه الأشعث ولحيته القذرة وعينيه الذابلتين . وحين قرب القبطان «مورهوز» الضوء من ذلك الشبح القابع في الممر عرفه من اللحظة الأولى . فقد سبق له أن رآه من قبل ولكن في حالة اخرى ... كان يضع الغليون في فمه و يضحك ، وتذكر «مورهوز» تلك اللحظات الصعبة حين قيّده القرصان وتركه موثقاً مع بحارته التعساء على ظهر السفينة «دي جراسيا» وجرده من كل ما يملك من مال ومن طعام ، وها هو الزمن يدور دورة جديدة وتتقلب الأمور فيصير الطاغية الجبار جرذاً ذليلاً قابعاً في ركن مظلم من سفينة ، يطلب النجدة وليس

هناك من ينجده .

نظر القبطان «مورهوز» الى قنفذ البحر ثم قرب الشعلة الملتهبة من وجهه حتى لامست لحيته وقال له بهدوء المنتصر :

ـ انتهى الأمر ... لقد أصبحت الآن قنفذاً حقيقياً .

••••

وعلى سطح سفينة القراصنة فوجئ الجميع بالقبطان «مورهوز» يسير وأمامه رجل منكس الرأس يسير بصعوبة وهو يتوكأ على ساق خشبية هي نفس العصا الغليظة التي رآها القبطان تنسحب بهدوء داخل الممر السري الجديد . ولم يكن أحدٌ قد رأى وقتها المسدس الصغير الذي صوبه القبطان «مورهوز» من الخلف على القرصان «قنفذ البحر» وكاد يلامس ظهره



« وفوجىء الجميع بالقبطان « مورهوز » يسير وأمامه رجل منكس الرأس » .